

قصص مختارة

لحظة لقاء

مجموعة قصصية

د. نعيم عطية

إهـــــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

قصص مختارة

لحظة لقاء

مجموعة قصصية

د . نعيم عطية

DL



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

نجوم كثيرة

* أقبل الصيف الطويل الحار . ومضى وئيدا ثقيلا حتى انتصف شهر أغسطس .. فأصبح النهار فى المدينة الكبيرة بين جدران الأسمنت المسلح ، وعلى أسفلت الشوارع ، قرصا برونزيا ملتهبــا .

لم يكن زيد يحس بأنه يحيا الا عندما يوغل الليل .. فترة القيلولة يلقى بجسده المهدم على فراشه .. يجاهد حتى يطرد عن ذهنه مشاغل المكتب ، فاذا راح فى اغفاءة أيقظته جلبة العربات فى الطريق فينهض غارقا فى عرقه . لا يلم شتات جسده الا بعد أن يصب عليه كيزانا من الماء الذى دفأته الشمس فى المواسير طوال فترة الظهيرة . كان يطرد الصداع بأن ينحنى تحت الصنبور .. كمن يسلم رقبته الى نطع الجلاد .. فتجرى المياه على رأسه ورقبته وكتفيه وظهره وصدره وربما وصلت الى بطنه وعجزيه .

ثم ينزل الدرجات ويتلوى مع الحوارى والدروب الهابطة النازلة .. قاصدا مقهى فى وسط المدينة يجتمع فيه أشتات مختلفة من البشر القاطنين علب السردين المحشورة فى مجتمعات اسمها عمارات .. يشربون المياه الغازية ويلهثون على الكراسى مثل سمكة فى اناء .. مثل فأر فى مصيدة وهم بانتظار نسمة تهب .. يرهفون السمع لها .. ويترصدونها من بعيد .. يغيرون وضع مقاعدهم أكثر من مرة فى الأمسية الواحدة .. فتارة يجعلون واجهتهم الى الميدان الكبير الذى يتوسطه تمثال لا يأبه بحر الناس ولا ببردهم ، يلبس منذ عشرات السنين معطفا سميكا أخضر مع الزمن ، كما اخضر طربوشه المائل على جبينه .. ينظر الى الناس بنظرات محملقة ويسائل نفسه ما الذى جعل الشوارع تمتلىء بالتماثيل ؟ .. وقد اتخذت يمامة رمادية مكانها المختار على كتفه اليمنى وراحت فى النوم غير آبهة بصفارات المرور وصخب العجلات وصيحات الباعة .. وتارة يجعل زبائن المقهى العتيق واجهتهم الى الحارة الجانبية التى يسرى فيها تيار رطب فجائى طورا من الشمال الى الجنوب وطورا من الغرب الى الشمال الشرقى .. فاذا كان التيار من الجنوب الى الشمال اكتسح معه هبات من الغبار .

ألقى زيد بجسده على كرسى من الخشب الى جوار منضدة ازدحم حولها معارفه .. تعالى صوت النرد، وطرقعات الطاولة،

وكركرة الشيشة، وصيحات «كش وزير» ونداءات بائع الفانلات وأمواس الحلاقة والمناديل .. وصرخات آكلة النار ، والبيانولة العطلانة التى تصدر منها النغمات المألوفة عرجاء شاكية تآكل التروس وقلة التزييت .. بل وباعة الفراخ .. والفزدق .. — ان كان ثمة فزدق — والأكواب الكريستال .. والصينى .. والامشاط وولولات الشحاذ الأعور .. أشياء تعطى الاحساس بأننا على قيد الوجود .

سرح بصر زيد عبر الشارع .. استوقفته على الطوار المقابل شجرة تكاد تكون جرداء .. وبجوارها عمارة جديدة صاعدة .. خيل الى زيد ان الأغصان تبوح له بشىء .. صمت ما حوله .. سمعها تهمس اليه .

— لمن البقاء ؟

لم يدر لسؤالها اجابة .. تغيرت الاضاءة . بدا الوجود من حولها بنفسجيا .. شجرة فى مدينة ، يحاصرها أسفلت الطريق، ويخنقها دخان المصانع . والنسوة يلقين مياه الغسيل عند قدمها فتمتصه جذورها العطشى وتلتهب ، وتحمله أغصانها الى أوراقها فتذبل وتتساقط دموعا . الحوذيون الى جذعها يربطون أفراسهم. السكارى فى الليل على صدرها يرتمون ، وهى فى الليل تظل ساهرة حزينة .. الأطفال على ساقها يبولون ، وهى صاغرة كليلة .

اهتزت أطراف أغصانها .

أوراقها تبحث عن نسمة نقية ، بكل عناء .. لم تعد تقوى على الوقوف ممشوقة مرفوعة الرأس فتية . شاحبة هي شقية . تكاد تختنق .

تنهدت . مضت في شكاتها :

ـ عجوز أنا رغم انني في ريعان الشباب صبية .

مالت الى العمارة من خلفها ولا زال طلاؤها لم يجف . نكست الشجرة رأسها وقالت :

ـ وقد سمعت بالقرب مني المعاول تدق الأرض ، ورأيت الفعلة يرمون المسلح ، ويضعون الطوبة فوق الطوبة .

اختلج صوتها ، كما لو كان قد جثم قاتل على صدرها :

ثم صاحت تستغيث :

ـ بالله نسمة نقية ! نسمة نقية .. تبرد النار التي في !

نهض زيد . أخذ كوبا من الماء . ذهب اليها وألقاه عند جذورها العطشى . ربت على جذعها ، فمنذ صغره كان يحب الشجر ، وكان يقول لأمه « حبيبتي شجرة عجوز ، كلها بثور وندوب » أنت أغصانها . ثم قالت :

ـ ارتفعت الى جوارى عمارة . واشرأبت تناطح السحب . .. وتعالى الدبيب على أسفلت الطريق .. وأقبل السكان وسكنوا .

ثم صمتت . لم تغالب ألمها ، فجاء صوتها متكسرا :

ـ سمعت البعض يحدث المالك أمس ، ويشيرون الى .. فهمت اننى لم أعد مرغوبة . أغصانى وأوراقى تحجب عن السكان منظر الميدان . يالى من شقية !

ثم اختتمت كلامها ، كما لو كانت تسير الى ساحة الأعدام :

ـ باكر ستأتى البلدية ، وتفسح المكان للوحوش الضارية ..

نكس زيد رأسه . صدق على كلامها قائلا :

ـ للغيلان بلا قلوب ، أهل المدينة !

فتحت اشارة المرور . انطلقت السيارات مسرعة ، تنفث الدخان من خلف ، وتصخب عجلاتها ومضخاتها وتروسها الحديدية .

ـ التفت زيد نحو معارفه بالمقهى .

أدرك ان الليل يمكن أن ينصرم دون أمل . آثر ان يصعد الجبل كما أصبحت عادته فى الآونة الأخيرة .. حيث تتسع الأرض فى ضوء النجوم ، ويغرق الضجيج فيها حتى يكاد

يكون الصــمت أزليا .. عالم شفاف لا يخطر ببال أحد من المحملقين فى أضواء المدينة .

سار زيد فى الطريق . تحت نعل حذائه جثة ، كلما مشى سمع قرقعة عظامها . لا يعرف ماذا يفعل . يخشى اذا خلع حذاءه ان يمرض ويمسى جثة هامدة تدوسها النعال .. فكر أن يقفز فى الهواء ، أن يطير ، لكن كان من المستحيل على مثله أن يطير . مضى زيد يسير فى الطريق الصاعد على سفح الجبل ، محنى الجذع ، يقاوم الجاذبية التى تشده الى أسفل .. وهبات الهواء التى تدفعه فى صدره .. يدور كلما دار الطريق ، ويســتقيم اتجاهه كلما استقام .. ابتعدت المدينة .. تبددت أصواتها .. ولاحت اضــواؤها من بعيد كآلاف الزوارق المضيئة فى بحر مغلق . عوى ذئب فى أحد الدروب الجانبية .. تحت .. تسهل زيد .. أطل عليه .. أعادت تلك الهيئة الضــارية للوجود كل توازنه . ها هو زيد يصعد المنحدر فى هدوء ، وقد تحررت خطواته . كثافة الجو تخف . سهل العبء على كاهله .. نظر الى المدينة .. ها هى ملقــاة عند قدميه .. تتوجع جاحظة العينين .. تلهث فى شقاء .. وتجاهد للوقوف على ساقيها لتمضى فرحة الى البالوعة . . وعلى السفح تقف الأشجار المهيبة الشامخة : ترشف ظلالها السوداء وقع الاقدام على صخر الطريق الوعر :

وترقب متوجسة الصاعد فى طريقه المتعرج ليختفى عند منحنى الدرب الذى يضيع فى الطبيعة اللانهائية •

ستائر كثيفة من السكون •• كهرمان أسود •• تيار من الذكريات ينساب فى صمت •• جلس زيد على صخرة منعزلة يرنو الى السماء من فوقه •• ذكريات بعيدة •• تذكارات طينية• غاصت المعدية فى النهر •• فلاحون ومواش لقوا مصرعهم •• رفست دابة القاع المتآكل •• خرقه حافرها •• تسربت المياه من الشقوق •• كانت المعدية عطشى •• لم يتمكن الأطفال على الأخص من النجاة •• ولم تنتشل كل الجثث •

طل فأر رمادى من جحر قريب ، وقال باستخفاف :

ـ زيد من الناس بالخارج •

سألت الفأرة من داخل الجحر :

ـ أى زيد هـذا الذى يترك صخب الحياة فى المدينة ، ويجىء الى صمت القبور هنا ؟!

ـ انه يتطلع الى فوق مذهولا ويتمتم ••

ـ ربما عاشق ••

ثم تسرب الارتياب الى صوتها :

ـ أو ربما هارب طريد • يطلب الاختفاء عن العيون • يتلمس الأمن والنجاة •

ـ هؤلاء البشر مخلوقات حقيرة .. ومغرورة أيضا . تدعى الصمود وهى تفر . قدم الموت الثقيلة تطؤها فى كل مكان . ليس لها جحور تحتمى بها مثلنا .

أدار عينيه الصغيرتين فيما حوله وقال :

ـ شىء رائع . أرى الأرض من نافذتى . لا صوت يبدد هذا السكون المطبق حتى لأسمع نبضات قلبى !

زاد صوت الفأرة الجميلة انكتاما . كانت منشغلة بقرض شىء داخل الجحر :

ـ يبدو انه منظر ممتع حقا ؟

ـ ليتنى أستطيع أن أصفه . تعوزنى الكلمات دائما .

ـ ترى ، هل بدأ موسم الأوكازيونات هناك ؟

ـ يبدو الأمر مبالغا فيه . ألا توافقيننى ؟

ـ أعرف . للأوكازيونات فعل السحر دائما .

ـ لا أقصد الأوكازيونات . أعنى الاعتقاد بأننا المخلوقات الوحيدة فى هذا الكون . ليس بالسهل التصديق . قد لا تكون ثمة أنماط أرقى منا .. لكنه شىء بعيد الاحتمال أن تكون القدرة التى بثت الحياة والنظام فى جحورنا قد حصرت الخلق والذكاء كله فينا .

خيمت برهة . رفعت الفأرة المختبئة صـوتها من أعمـاق الجحر :

ـ هل أعد لك قضمة من السجق ؟

ادار رأسه ، وأدخله الجحر . أبقى راحتيه الصـغيرتين متعلقتين بنافذته كأنه يخشى السقوط . تشبثت مخالبه بحافتها . جاء صوته مكتوما :

ـ الجحر ملئ بما لذ وطاب . أريد وجبة كاملة .

ـ حسنا ، عليك الانتظار بضع دقائق ، حتى أعد لك بعض مكعبات السكر .

تأمل الفأر الكون الرحيب من حوله مليا . حصى رمادى أبيض برونزى . الأشـجار من بعيد اجرام عدوانية غارقة فى ظلالها . وفدت دقات ساعة الجامعة من بعيد ، مخنوقة خافتة . أجفل الفأر ، وانسحب داخلا بسرعة .

أفاق زيد كما لو كان ثمة منبه مركب تحت فروة رأسه . عالم غريب . أفق منحن . نجوم متناثرة . كرة زرقاء يسـبح نصفها فى الظلام . ظلال . ظلال . كأن الزمن قد توقف . والمكان أرجوحة رجراجة . كأنه راقد فى سريره يرى حلما . الشباك فى غرفته مفتوح ، ونسمات الليل تدفع النجوم الفضية البعيدة فى رفق الى أحضان الستائر الشفافة . لا شئ يعادل

الابتعاد • الشوارع والحوارى والبيوت والأحياء « تحت » تتكاثر مثل أورام خبيثة لا ضابط لها • كان زيد يريد شيئا له وحده • لا يتعقبه اليه فى عزلته أحد • شيئا صغيرا ، لا يشاركه فيه غيره • لا يريد أقنعة خزفية، أظافر مصقولة، زهورا وحلوى، ألاعيب •• وابتسامات •• وببغاوات ملونة •• الناس ينظرون اليه •• يخشى عيونهم • يخافهم • لفتاتهم تبعث الذعر وتسرى الرعدة فى عظامه • لم ينظرون اليه ؟ ألأن اظافره تضايقهم ؟ أم لأن الشوك يغطى جسده ؟ أهذا سبب حسده ؟ •• عطس ذو اللحية الحمراء فى وجهه • الوجود يغرق ، فى النفق المعدنى من حوله • تماسك • وتشبث بالصخرة الممتدة فوقه • وعلا الطنين والضحك والصراخ والأنين • وصاح الكمسارى بصوت عقيم : الجنة المحطة القـادمة هرولت الثيران البطيئة الى الباب تنطحه بقرونها الحداد • انحشرت فى الفتحة الضيقة • عم الوجود ضوء أزرق • كنا نغرق • تناطحت الثيران ، وبقرت البطون • سال الدم على السيقان • تناثرت فى المحيط الاشلاء والشهب • قام القاعدون على الكراسى ، وصفقوا ، توالت الخطب • ثم صفر الكمسارى : جهنم المحطة القادمة • تعالى الصخب ، وعم الهـرج • التفت النـاس الى ، حدقوا فى • تملكنى الهلع : انكمشت وتراجعت •• يالله ، لم ينظرون الى هكذا ؟ أضحى

الوجود من حولى ظلاما • تراجعت ، وتراجعت ، وتراجعت • ومضى السفين فى طريقه منطلقا • وبقيت وحيدا فى العدم ، أجرى متخبطا ، على شـاطىء الشـمس وقد جفت الدماء فى عروقى • ومن حولى العدم أضحى تجربة أرجوانية • فى نفسى التى سرت فيها الرعشة المظلمة عند الجذور ، وفى الساق ، وفى الأغصان اليابسة •

كانت هذه رقصة كل يوم ، من البيت الى الديوان • فى مركبة مثـل جاموسة حمراء متخمة • كان لابد أن يلوذ زيد بالجبل الرحيم الخالى حتى يجمع شتات نفسه فى ليالى الصيف الحارة • انه يذكر الآن رفاقه فى المقهى • يكاد يراهم • فى أجسادها العتيقة المهدمة تجلس أرواح العجائز • لابد أن تيسيرا يرشف فنجان الشاى الأسود ويشعل أعواد الثقاب الواحد تلو الآخر لتنفث النار فى غليونه • وتيسير الثالث يطلب قدحا رابعا من الجعة المثلجة • ما أسهل المتعة •• زر صغير •• تضغط عليه •• وكل شىء يدور •• ألوان حمراء وخضراء وصـفراء •• وابتسامات •• ما أسخف كل شىء • أما تيسير الثانى فيحكى للرفاق سبب غياب الصديق تيسير السادس عن المقهى • تيسير الخامس يلقى بأسئلته المبلبلة على الصحاب « أيهمـا وجد قبل الآخر •• الليل أم النهار ؟ » وكان لا بد أن يكون وراء وجهة النظر الأولى منطق وحجج ، ووراء وجهة النظر الثانية منطق

وحجج أيضا • الوحوش الحزينة تجلس على الطبلية •• كم هى ضجرة بالحياة التى تحياها •• وكم ترتعد خشية ان تفقدها •• فكم تحب الحياة تلك الأرواح المبلبلة المتناقضة •

زعق على غصن بعيد طائر من طيور الليل ، ثم ما لبث ان أطبق الصمت من جديد •

نظر زيد الى السماء ، كما يفعل دائما ، باتتباه كبير • كانت السماء تتكشف الليلة ببريق ووضوح غير معهودين • شاهد شيئا يصعد من نجم الى نجم • قال لنفسه : مركبة فضاء • ثم أمكنه أن يتبين بعد هنيهة ان ما شاهده كان دراجة يقودها راكبها فى هدوء عابرا بها السماء من طرفها القصى الى طرفها القصى الآخر • كان يسير بمطيته صعودا وهبوطا كما لو كان يصعد تلالا ممهدة وينزل عليها • كانت العجلتان تدوران بلا صوت • وبدا الراكب فى قميصه وسرواله الأبيضين المنتفخين كأنه زهرة لوتس خفية • كان فى بعض الأحيان ورأسه الى أسفل أشبه بجنين فى رحم الليل الرحيب •

قال زيد معجبا : ياله من منظر رائع ! ينساب بين النجوم كفراشة ، كنحلة دؤوب تطوف بالزهور فى بستان !

تعثر الراكب فى سحابة • انقلب فجأة وتحطم • هوى على الأرض • جرى زيد نحوه ، وهو يلوم نفسه قائلا « حسدته ،

كعادتك . شيء غريب . ماأن تعجب بأحد حتى يحط عليه النحس، وربما الخراب ! » وذلك رغم ان زيدا لم يكن من ذوى العيون الزرق ، وهؤلاء يقال عنهم انهم حسودون بطبعهم . من الذى يقول ذلك ؟ أمه بالطبع . كانت تقول ذلك نقلا عن جدته سيدة العارفين . كانت عالمة ببواطن الأمور . تنظر الى النجوم بعينيها اللتين كاد يختلط بياضهما بسوادهما ، وتقرأ الطالع ، وتحدد كثيرا مما سيقع فى الغد القريب أو البعيد . كانت أيضا تصنع أحجبة .. صغيرة مبطوطة .. تعطيها للمحبين الذين يذهبون للقاء ، وللتلاميذ عشية امتحاناتهم ، وللتجار الذين يخشون بوار تجارتهم أو يطاردهم مآمير الضرائب يطالبون الاطلاع على دفاترهم ، وللزوجات اللاتى سافر أزواجهن الى بعيد . كانت تعطى الحجاب لصاحبه ، وتحذره من ان يفتحه حتى لا يصيبه شر كبير . ذات يوم جرؤ أحد التلاميذ الخبثاء ففتح حجابا جلبته له أمه من جدتى غفر الله لها ، فوجد مكتوبا به على قصاصة ورق أصفر قديم « انجح .. ما تنجح .. شالله ما تنجح .. تنجح .. شالله تنجح .. ما تنجح .. شالله ما تنجح .. » كل الصفحة وظهرها لم يكن عليها سوى هذه العبارات . وقد نجح الفتى ذلك العام نجاحا باهرا ، ولكن اصابه شر كبير . كان بامكانه أن يلتحق بكلية الشرطة ويتدرب على الكلاب البوليسية ، أو بكلية المبعوثين الدبلوماسيين فينعم برغد العيش متنقلا بين نيويورك

وبكين . كان مجموعه يسمح بذلك لكنه أصر ، فدخل كلية لا يتعلم فيها الا كلاما .. وأى شر أدهى من أن يصر المرء على ضرره ، ويصم أذنيه عن نصح الناصحين .

جرى زيد نحو الرجل المحطم . جرى فى أعقـابه الفأر الجبلى . كان حذرا ألا يدوسه حذاء زيد ، وهو يهرول متخبطا بين الصخور والحجارة . همس مناديا فأرته . ثم وقفا وراء حجر قريب يتابعان زيدا ورفيقه .

قال الفأر :

ـ كل يوم فى معامل الأبحاث مئات من اخوتنا ، جرذان كبيرة .. وفيران وليدة .. اناث وذكور ، تلقى حتفها .. تحت ضربات المطارق .. فى المحاليل ، ولا أحد يكترث .

أشارت الفأرة بشواربها الى الرجل المحطم ، وقالت :

ـ فى داهيـة من يموت .. سـنملأ ببقاياه جحرنا .. ترى ماذا يحمل فى حقيبته المعدنية وراء ظهره ؟ وددت أن تكون فيها بعض أدوات الزينة . نفدت منى زجاجة الاكلادور . وأصبح الروج على وشك أن ينقرض .

كان الرجل المحطم يتنفس بصعوبة . وقد ازرق وجهه .

ركع زيد الى جواره وسأله فى لهفة :

ـ يامن أتيت من بعيد ، قل لى ما الذى تعرفه عن هذا العالم .. والعالم الآخر ؟

فتح راكب الدراجة شفتيه قليلا مرتين أو ثلاثة ، ولكنه لم ينبس بكلمة .

أعاد عليه السؤال . ألح . لم يجب . فوجه اليه سؤالا آخر على عجل :

ـ أرجوك ، أيها الطائر الحبيب ، يامن تجولت هناك ، قل لى اذا كان للانسان أمل .

خيم الصمت ذاته ، ولا اجابة .

ـ انى أتوسل اليك . قل لى ! هل للانسان أمل ؟

ندت من الرجل المحطم حشرجة ثم همس بصوت متكسر :

ـ كنت أؤدى واجبى .. بأمانة .. بلا جلبة عالية .. هزة غريبة فجائية .. طقطقة غامضة . زهور كثيرة هناك .. فى جيبى زهرة واحدة .

سأله زيد وقد استقرت أنظاره على شفتى الرجل المكوم على الأرض :

ـ زهرة السعادة ؟

لا اجابة • سال خيط من الدم الأحمر القانى من جانبى فمه •

أردف زيد يسأل :

ــ الحقيقة ؟

زحفت غشاوة شـاحبة على وجه راكب الدراجة •• بدا وجهه مثل وجه القمر فى ليالى الخريف •

ــ الحياة ؟ الموت ؟

لوح الرجل المحطم بيديه فى حركة واهنة أخيرة وهمس :

ــ الروح •• بالروح •• تعرف !

كانت قبضته مطبقة • هجم عليها زيد بضراوة يحاول فتحها عنوة • انتزع منها شيئا يبدو أنه كان متناهيا فى الصغر •• ذرة •• لم تبن بين أصبعى سبابته وابهامه وهو يرفعهما الى الضوء عاليا منتصرا •

قال الفأر الرمادى بصوت تبدد فى الهواء :

ــ لا شىء •• بذرة وهمية ••

أردفت الفأرة :

ــ هى بداية الشقاء دائما •

ــ وربما الدمار أيضا •

ـ عندما يجد الكنارى باب القفص قد انفتح يخرج ٠٠ يطير بعيدا ٠٠ ويعتقد ان قضـــبان العبودية قد انكسرت الى الأبد ٠

صاح زيد يحادث نفسه ، أو ربما يحادث السماء الصامتة ذات العيون الألف :

ـ وجدتها ٠ ها هى فى جيبى الآن ٠

حدق اليه راكب الدراجة مركزا نظراته الحزينة فى عينيه ٠ ثم مال رأسه المشجوج ، ولفظ أنفاسه ٠

مضى زيد فى صياحه :

ـ يقولون الزهور تحتاج الى مائه والفاكهة الى ألف ٠٠

ارتعش صوته :

ـ لكنا ماعدنا نثق ٠

تماسك صوته ٠ أشار الى قبة السماء المليئة بالثقوب :

ـ لنهرب من الأرض القديمة الى الأرض الجديدة ٠

انخفض صوته ٠ نظر من حوله :

ـ نحن على الحدود ٠٠ البحر من فوقنا عميق الزرقة ٠٠

عبث الهواء بشعره ٠ لوح بقبضته المطبقة ، وصرخ فى وجه الليل الصامت :

ـ لكن الباب سيفتح •• المزلاج يتزحزح •• والقضبان تذوب •• مثل أعواد غاب تتكسر •

دقق النظر الى أصابعه :

ـ ها هى نقطة •• سهم يشير الى أعلى•• حتى أولئك الذين لم يولدوا بعد هنا في يدى •

رفع وجهه الى النجوم وهمس فى لهفة الانتصار :

ـ حبيبتى لم تمت ، لا زالت تمشى فى ظلال السحر ، فوق الغصون وهامات الشجر • حبيبتى لا زالت حية ، تطوف الحدائق والحقول ، والغدران والجسور • ربما أتت مع الغروب ، أو ربما أتت اذا الليل انتصف •

انكسر المحار • فاحت رائحة الصخور •• الألوان باهرة •• النظرة عذراء • ملأ رئتيه بالهواء الرطب :

ـ الشباك ممزقة لكن الصيد وفير •• بالنهار ، أبحث عن صور حلم ضائع •• أبحث بين يدى •• عند مفرق الطريق •• اينما قادتنى قدماى • عندما أرى عينى قطة •• عندما أشم عطر ياسمينة •• تضىء فى جوف المحيط شمعة ، وأعود الى حلمى القديم !

تعالت فجأة من أسفل الجبل أصــوات تشق الظلال ••

صفارات الشرطة .. أجراس الاسعاف والمطافىء .. ووحدات الانقاذ .. والدفاع المدنى .. ولجان الاتحــاد .. ومندوبو الرياسة والنقابات .

هب الفأر هامسا الى فأرته :

ــ لنهــرب .. أقدام الدمار .. آتيــة .. تدب بسرعة نحونا .

قالت الفأرة باحتقار وهى تجرى لاهثة فى أعقاب زوجها :

ــ يقولون انها المدنية .. جلبة عالية .. تسحق كل شىء فى طريقها .. أسراب جراد .. تتغذى على أنغام الجاز والخنافس .

دب الارتباك فى قلب زيد . أحس بقوة تدفع ساقيه ، وتطلق لها العنان . نزل من الجبل يتدحرج . يلهث . يتخبط . أصيب فى جبينه .. وركبتيه .. تمزق سرواله ، والتوت ساقه . ظل يعــرج نازلا . فقد توازنه أكثر من مرة . ارتفعت ذراعه فى الهواء ، وانفرجت أصابعه . جرى .. جرى .. من الجانب الآخر . انه لا يريد أن يلتقى بالبوليس . يريد أن يفلت بغنيمته ولا يريد تحقيقات ومحاضر .. وسين وجيم .. وبخاصة انه ترك بطاقته بالبيت فى جيب سترته .

فتح زيد باب غرفته . ألقى بنفسه على أول مقعد لقيه ، وهو على أى حال المقعد الوحيد فى غرفته ، كرسى صــغير

مستدير بمسند من القش . ماءت قطته وتمسحت بساقيه . أغمض عينيه برهة ، ثم تذكر أصبعيه .. السبابة والابهام .. رفع راحته اليمنى سريعا . حملق فيها .. كانت فارغة . رفع يده الأخرى فى رعب ، وهو يعلم ان ما يبحث عنه كان فى يده اليمنى . انتفض واقفا ، وصرخ :

ــ الزهرة !

ثم صاح فى حسرة :

ــ البذرة ! الذرة !

سقط على الأرض يبكى . مد ذراعيه المتسلختين يمسك بهما ظهر الكرسى وقد دفن وجهه فى قاعدته .

لكنه مالبث ان هب واقفا . ربما وقعت منه على السفح الآخر من الجبل . أجل . هو ذلك . دبت الشجاعة فى أوصاله. شمخ برأسه عاليا ، ونظر الى الشــمس التى بدأت تطلع عند الأفق ، وتبسط اشعتها البرتقالية على أسطح المنازل وواجهاتها الشرقية . أجل ، وقعت هناك بين الصخور .. فى مكان ما .. فى فجوة ما .. فى جحر ما .. هى هناك .. فى الجانب الآخر من الجبل .. لن تطولها يد أحد غيره . لا أحد غيره يعرف أنها سقطت .. هو وحده سيعثر عليها .. سيجد فى البحث عنها .

سيصعد وينزل يبحث عنها . انها كانت فى يده .. ذات يوم

كانت معه. كانت فى قبضته، فى حوزته .. أى ريح مشئوم اطارها من بين أصابعه .. أى نحس ذلك الذى حل به لحظة انحداره على الجبل . هل كانت بين اصبعيه حقا ؟ هل كانت ؟! متى ؟! متى؟ أمس ! .. عـادت قطته تموء .. يبدو ذلك الأمس بعيدا .. بعيـــدا .. كانت معــه .. فى قبضـــته .. انــه يذكــر جده الأكبر .. كاتم الأسرار السموية .. وعم عمه البعيد .. أمين الأسرار التى لا يراها الا شخص واحد .. وجد جـده الآخر ركب البحر الى أقاصى بلاد بنت .. أمواج .. رمـال بيضاء .. رمال صفراء .. أمواج .. أمواج .. صخرة فتتت سحقت ذرات .، مدائن .. مدائن مطموسة .. جزر غارقة .. آلاف السنين .. نجوم كثيرة .. نجوم كثيرة .. تلمع وتضىء .. ثم تخبــو وتهــوى ، وتضــيع ، كأنهـا لم تكن .. ثم تعود الى صفحة الســماء الداكنــة المترامية فوق هامات التلال والجبـال .. ما اندثر أكثر مما وصل بكثير .. جـــدران ونقوش وقلائد وتماثيل ترقد صابرة صامتة تنتظر .

نظر زيد فيما حوله شاردا ، وصاح يقول :

ــ آلاف السنين فى الظلمة .. كفاك . العقوبة انقضت .. انهض .. انفتحت الأبواب الصدئة .. انفتحت التوابيت ..

ثم حملق فى أحد الأركان ، وقد انكمش . ومضى يحدث نفســه :

ـ انشقت الأرض •• خرجت حشرة •• ذات سيقان من القطيفة ••

قفزت القطة الى النافذة الموازية •• كان بين انيابها فـأر رمادى •• واختفت خارجة •

سيغربل كل تراب الجبل • سيدقق النظر فى كل حصاة• صغيرة كانت أو كبيرة •• مستديرة أو مضلعة • لن يتعلل ببعد المسافات ، وتعذر قياسها • ليس ثمة جسم لا يعثر عليه • لن يثنيه زمهرير أو جحيم أو سم • لن يعود الى جحره خـاوى اليدين •• فهو ليس حشرة • هناك عنصر فى صالحه دائما •• فالاتجاهات يمكن أن تتغير ، وسيعالج النظريات القديمة معالجة جديدة •• وسيكتشف منها جديدا تلو جديد • ان الخيال على حق ، ولكن من أجل أن يصـدق ذلك يجب الا يحسب الأمر بحساب السنين والقرون ولا حتى بالحضارات ، بل بحسـاب الزمن اللانهائى • الزمن الذى يتضمن امكانيات غير محـدودة •• سوف يلحق جسمه بخياله • وسيثبت ان كل شىء ممكن •

نهض زيد • ومضى الى المرآة المشروخة المعلقة على الحائط فوق الحوض • أخذ يحادث نفسه أمامها كما لو كان يريد أن يستمد من صورته عزما جديدا • سيمسح سفح الجبل شبرا شبرا ، وهو واجدها • النقطة الجدباء التى تنتهى اليها خطواتنا •• نظراتنا •• أنفاسنا •• اسماعنا •• صرير أسـناننا •• كـل

خلجاتنا وهواتفنا .. ربما لم تكن مواتا .. ربما كانت التحذيرات باطلة .. أو ربما لم نقرأها كما يجب .. ربما .. ربما ..

أنعم زيد النظر الى هالتين من السواد حوطتا بمقلتيه .

ربما هذه تعذبنا .. تقض مضاجعنا .. لكن .. لابد أن نواجهها بعيون مفتوحة . بآذان مرهفة .. بيقظة وتشــوق .. بلهفة وترقب .. لابد أن نحدق فى الظلمات .. ونرهف السمع فى الفلوات .. وان نكون فى كل لحظة على أهبة الانتظار ، ولا نقول : لاشيء .. فربما تنبت فى صحراء الصمت همسـة .. ربما تومض فى السماء الضريرة ومضة .. ربما هبت على الجذور الجدباء نسمة .. ربما اشتدت سواعدنا وتسلقنا الجدار .. ربما انفتحت النوافذ المغلقة وهتكنا الأسرار .. ربما أمطرت السحب السوداء .. ربما تفجرت الينابيع فى البيداء ، وانحسرت الرمال من طريقنا ووصلنا الى واحة واسترحنا .. ربما حالفنا الحظ ، واكتشفنا هذا الذى يؤرقنا .. من يدرى ؟ ربما .. ربما .. ربما ..

ابتعد زيد عن المرآة .. ادار لها ظهره ..

أجل ، انه واجدها . ايها القلب الحافل الأحلام .. بلواك أعرفها .. اليدان فى الوحل غارقتان .. من يدرى ؟ قد تصحو

ذات يوم فترى اليدين السمراوين عامرتين بالنجوم ـ بعد أن طهرهما المطر .. لن يكون لسعادتك ، أيها القلب ، عند ذاك حدود .. ولن يقف عائق فى طريقك بعد ذلك .. ستصبح ، أيها القلب ملكا على الحقول والصحارى والبحور .. وتتحقق فيك معجزة مثل تلك التى حققها السيد المسيح عندما بارك وكسر وكثر السمك .

هدأ روعه ، وسكنت الانتفاضة فى أوصاله .

هز رأسه . أجل ، غدا ، عندما يهبط الليل من جـديد ، ويصبح أكثر الناس عزلة .. سيصبح أقوى البشر .. وحدته ستملأه قوة .. سيستجمع شتات فكره ويركز على كل خطـوة خطاها ليلة أمس .. كل قفزة قفزها .. كل شبر سـلكه .. كل موضع انكفأ فيه .. سيقتفى آثار أقدامه صاعدا نازلا الجـانب الآخر من الجبل .. وفى هدوء وحدته ستواتيه أعمق الأفـكار وأكثرها صوابا ، وسيبحث بلا انفعالات .. بلا جلبة عالية .. بدقة وأمانة .. هكذا قال له « ايكاروس » ولا يمكن أن ينسى ما قال .

لكن الساعة تقترب من الثامنة . عليـه الآن أن يتهيأ للديوان . اغتسل .. حلق ذقنه . مشط شعره . عقد ربطة عنقه حول عنقه . وتأكد من ان حذاءه لم تعلق به ذرة من تراب أو لطخه شىء من الطين . ثم جمع تقاريره وطوى حقيبة أوراقه .

جرى الى محطة الأتوبيس ليوقع بالحضور فى الساعة والدقيقة اللتين حددتهما التعليمات ، والا تعرض للجزاءات • وعليه أن يبدو عاديا طوال النهار • مبتسما متفاهما • يجب أن يبدو اجتماعيا رياضيا ظريفا متسامحا يضحك لكل نكتة • بالنهار هو ما يريده الناس أما بالليل فهو انسان حر •

قبل أن يدير مقبض باب غرفته تأكد من أن ازرار سترته فى محلها ، وعلى الأخص زرارها الأوسط • فلا يقبل المدير من أحد أن يعرض عليه أوراقا الا وقد عقد سترته • ألقى زيد نظرة أخيرة فى المرآة ليتأكد من أنه يلبس قناع الانسان اليومى حتى لا يثير حوله الشبهات ، فيعوق ويمنح عملا اضافيا فى المساء ويغرى بأجر اضافى سخى ، وهو ضعيف أمام المغريات • سيحوط به الشرطة وحاملو العدسات وأجهزة التسجيل والأبواق وتكتب عنه الجرائد وتنشر صوره فى المجلات ويدعى الى الندوات ، وعندئذ سيكون نجما فلا يصعد الجبل ، ولا يظفر بخلوته ، فلا يتسنى له أن ينقب فى كل شبر من السفح • وربما جرفته اللجان والاجتماعات والمحافل والمهرجانات فينسى أنه أمسك بأصبعيه ذات مساء بذرة صغيرة •• قد تكون وهما أو خيالا أو ربما حلما لكنه مازال يشعر بوزنها الأثيرى وبملمسها على جلده •• انها مستقرة الآن فى مكان ما بين الحجارة أو تحت نبات شيطانى ينبت من تلقائه على الجانب الآخر من الجبل•

عليه ذات يوم أن يجد فى البحث . سيترك المدينة الساجية فى البالوعة المضيئة تحت .. ويصعد ويصعد .. سينبش التـربة بأظافره فى كل مكان .. فى التراب .. بين الحجارة .. سيقلب الصخور واحدةواحدة .. سيقتلع شجيرات الشوك وليدمى جلده ولحمه ، وليغلى دمه وليتفجر . وليسيل خيوطا رفيعة لزجـة على ساقيه .. سيجدها فى النهاية .. ذرة أثمن من أغلى قطعة من الماس .. مستحيل أن يكون كل هذا العناء عبثا بلا طائل .. من غير المعقول أن تكون النتيجة لا شىء .. غص .. غص فى المادة حتى تجد الروح .. يجب أن يجدها .. يجب أن يصـعد اليها اذا كانت فوق .. ان ينزل اليها اذا كانت تحت .. كـان يجب أن يجدها .. كان من المؤسف ألا يجدها . . ما أجمل الحياة .. النجوم والزهر والسمك والأرانب .. وانين السواقى فى الحقول .. ما أجمل الحياة .. فراشـات الصيف وأوراق الشجر .. الريح تهمس وتصرخ وتلين .. الكلاب الوفية تنبح والبومة تصلى .. وعيون القطط لا تطرف .. والثعابين تزحف .. ما أجمل الحياة ، وما أتعس أولئك الذين ماتوا .. الاعشاش على الأغصان لا زالت مليئة بصغار الطير .. والشمس لا زالت تحرق وتضىء .. والبحر يهدر .. والشجر يخضر . والقمـر الفضى يلمع وراء السحب .. والأشباح تحت الجسـور .. والدموع لا زالت حارة على الوجنات .. والذهب مازال محط

الطامعين .. والطواحين تدور وتطحن وتدور .. وخرير المياه .. من بعيد .. من بعيد .. ما أجمل الحياة ، وما اتعس الذين يموتون .. الناس الذين يبتسمون وينقضون مثل الوحـوش لا زالوا يبتسمون وينقضون .. والنساء الناعمات مثل الحرير لازلن يفحن فى المخادع بالعطور . بينما ظلمة الليل تتحول الى نهار .. والعصفور مخضب بالدماء من رصاصة الصياد .. كل شىء كما كان .. الوقت يمر ولا أعرف ماذا أفعـــل .. أنام وأصحو فى المكان ذاته .. كل شىء كما كان .. ما أتعس الذين ماتوا .. سحقتنا أقدام حديدية .. ما اتعسنا نحن .. ســوف يجدها .. انه يسمعهم فى طريقه يضحكون . ، يسمعهم فى الظلمات يسخرون .. انه يسمعهم .. يهمسون ، ويهمسون ، ياله من أحمق ذلك الذى يحملق فى الظلمات عله يهتك الحجاب .. ذلك الذى يصعد الطريق عله يبلغ السحاب ! ألا يعرف أنه بعد أيام أو ساعات ، أو ربما بعد لحظات .. ان عاجلا أو آجلا فى التراب سيرقد كومة من العظام البالية .. مثلنا ؟! سوف يجدها فعـدم الوجود يعنى العدم أو وجود كأنه العـدم .. نحـن نتوالد كالأرانب ، ونموت كالذباب ، ولكنا لا نحيا مثل الأرانب ولا مثل الذباب . عقولنا الصغيرة تجهد طوال الحياة فى مشكلة لا تجهد الأرانب ، ولا تخطر ببال الذباب .. اننا نتساءل فى جحورنا : لماذا نحيا ؟ .. وعندما ننغرس فى القاذورات نصرخ ،

ونصرخ ، ونصرخ : لماذا نموت ؟‥ بينما نحن نتوالد كالأرانب، وكالذباب ، نموت . وبعد أن كان جد جده كاهنا أكبر ‥ وربما فرعونا ‥ سيكون غدا عبدا مملوكا ‥ جيفة تقذف بها أمواج الفضاء الى كوكب سديمى ‥ لن يقول لن يجد ‥ لن يغفل الأشياء الصغيرة ‥ كل ما هو عابر سريع الزوال سيوليه اهتمامه ‥ حتى لو كان دخانا فى الهواء ، أو نسمة ريح ، أو حفيف غصن أو زبدا متطايرا من أمواج متلاطمة ، أو ذابلة شمعة على وشك أن تنطفىء . سيصم اذنيه عن كل هواتف الفشل . واذا لم يجد بغيته فخير له أن يموت وهو يبحث من أن يفترس وهو جالس على المقهى بين قطيع من الأغنام تثغو وهى تعتقد أنها تزأر . مغروزة فى مرحاض وهى تظن انها قد فكت وثاقها ، وتأهبت للانطلاق ‥ هى تركب معدية مليئة بالثقوب ‥ يصيح فيهم الجرسون ‥ فى داهية من يموت ‥، ولا شىء ‥ ولا شىء غير ذلك .

نزل زيد الدرجات .

نافورة الميدان جفت ‥ الشوارع خلت ‥ النوافذ شاغرة ‥ الفيران فى بئر السلم ، تجرى على بطن القطة الرمادية ، وتنهش ‥ كل السكان ماتوا ، حتى البواب على دكته الخشبية غاب فى سبات عميق .

الخدع الصغيرة

١ ــ الشيء ..

* في طريق عودتي الى بيتي ذلك المساء وجـدت شـيئاً ملقى الى جانب الرصيف . كان ملفوفا في منديل أحمر .

التقطت الشيء ، وأخذته فرحا الى بيتي .

وما ان فتحته أمام زوجتي حتى صرخت :

ــ ماذا جلبت الى البيت يا زيد ! هيا ، حالا ، الق به خارجا ! ..

لم أنجح في تلطيف ثورة زوجتي . فطـــويت اللفافة ، وأغلقت الباب خلفي ، وخرجت الى الطريق ، وصرخات زوجتي تودعني .

قابلت صديقا .. فقلت له مبتسما :

ــ انظر ، ماذا وجـدت ؟

وما ان رأى صديقى ما معى حتى ندت منه صيحة ، وقال لى باشمئزاز :

ـ أهذه أصـــول ؟

ومضى مبتعدا ، وهو يلتفت وراءه يرمقنى بين الفينة والفينة بنظرات اختلط فيها التقزز والخوف ، فخطوت وراءه مناديا :

ـ انتظر ، سأشرح لك .

ولكن ما أن رآنى أتجه اليه حتى أسرع الخطى .. ثـم أطلق لساقيه العنان .

بقيت وحدى أنظر الى الصرة التى معى . تأملت الشيء فى يدى وقلبته مسائلا نفسى ما الذى يجعل الناس يفرون منى عندما يرونه معى فرارهم من مريض أجرب ؟ لم أجد فى ذلك الشيء ما ينفر منه ، بل على العكس أحسست بقلبى يطمئن اليه .

هززت رأسى فى آسف ، مسكتا صوتا بداخلى ، كما كتب على دائما .

مر على بعد قليل شحاذ ، يبدو أنه لم يذق طعاما منذ يومين، فمددت اليه يدى بالصرة أحسن بها اليه ، ولكن ما أن نفذت نظرته الى ما بداخل اللفافة حتى صاح فى وهو يرتعش :

ـ أعوذ بالله ! الا تستحى ، يا أستاذ ؟! الله الغنى ! سأمشى خشية أن يرانا أحد !

ومضى فى طريقه يعرج بأسرع ما يمكنه ، وعكازه يدق على أرض الطريق الصلبة دقات رتيبة متتابعة مبتعدة •

لم أجد بدا من أن أسلم الصرة الى أول شرطى • وبعد بضع خطوات التقيت الى جوار أحد أعمدة النور بشاويش بدين وقف يداعب شاربه ويتفرس فى لا شىء • وعندما اقتربت منه ، أقرأته السلام ، ومددت اليه يدى وهمست قائلا :

ــ هذه الصرة ، أنا •••

لكن الشرطى ما أن رأى الشىء يمتد نحوه حتى زأر كأسد دخلت فى قدمه شوكة ، وازدادت عيناه الضيقتان ضيقا • انتزع هراوته المشدودة الى وسـطه ، وارتفعت يده الأخـرى بالصفارة الى شفتيه الغليظتين •

امتلأ الجو من حولى بصفارات حادة مدوية ، أدركت اننى فى خطر حقيقى ، ووجدت نفسى أجرى هاربا من وجه الشرطى، وكأن ريحا عاتية تدفعنى فى ظهرى •

مضيت أعدو الى شارع وأخرج من شارع ، وأدلف من حارة الى حارة • وبعد أن أيقنت اننى قد أفلت من الشرطى ، وقفت أستجمع أنفاسى اللاهثة ، واذا بى أجد قبضتى لا زالت ممسكة باللفافة •

قررت أن ألقى بها الى الطريق ، وأتخلص منها بأسرع وقت • وضعتها ــ كما سبق أن وجدتها ــ الى جوار الرصيف ،

ومضيت أتأملها في حسرة برهة . كان بالامكان أن يغير هذا الشيء الصغير حياتي .. ان يجعل لها معنى ، اذا ما كنت قد تمسكت به ، وأوليته رعاية وحنانا .ما الذي ينقص كل علاقة ؟ الثقة ؟! الايمان ؟ الفهم ؟! الاكتراث الحقيقي ؟! وانحنيت أربت على اللفافة ، كما لو كانت انسـانا عزيزا سيفارقني . قبعت المسكينة الى جوار الرصيف في دعة واستكانة ، ونكست رأسي معتذرا مودعا . ثم انصرفت وقد أشحت وجهي عنها كمن أحس بذنب . وعند نهاية الطريق ، استدرت ونظرت اليها ، واذا بها تنظر الى في استعطاف صـامت ، فوقفت ، وقررت ألا أدعها وحيدة ، واختبأت وراء جذع شجرة ضخمة . قلت لها من بعيد « هل تتوقعين من رجل أن يهدم بيته ويفقد سكينته ويخدش مستقبله بفضيحة متى كان بامكانه أن يتفادى كل ذلك بشيء قليل من التجاهل ؟! » ولكن على الرغم من قوة هذا المنطق ، فقد هب الصوت بداخلي يعارضني ويسخر مني .

لم يمض وقت طويل ، على أي حال ، فقد ظهر عند المنحنى رجل مثلي تماما ، أو على الأقل لم يكن يزيد عني في شيء . وأخذ يقترب من اللفافة ، وما ان مر بها حتى استرعت انتباهه ، فعاد اليها ، وانحنى يلتقطها . تفحصها قليلا . ثم هز كتفيه في استغراب ، ومضى في طريقه وقد حمل الشيء بين يديه .. كما فعلت أنا من قبله تماما !

٢ ـ أمسية مع أبى

••••••

قال وهو يمسك قدح الشاى الساخن بين راحتيه :

ـ وهل تريد أن تصلح الكون ؟ هل هذا من شأنك ؟ ليس الأمر فى استطاعتك .

ـ اذن ، ماذا يجب أن أفعل ؟ أجارى الناس فى شرورهم ، يا أبى ؟

ـ لا . كن على الحياد فحسب . ان استطعت أن تفعل الخير فى حدود امكاناتك افعله .. والا فلا تأخذ الأمر مأخذ الجد ، وتجلب النكد على نفسك . لا تجعل الندم يأكل قلبك ، ويفسد عليك حياتك . يابنى ، فسد الناس ، ولست بمستطيع أن تقومهم . انى أخرج الى الناس فى الصباح وقلبى يمتلىء بالخوف منهم . وعندما أعود آخر النهار الى بيتى أتجنب الطرقات الجانبية المهملة . أختار لسيرى الطريق الرئيسى الآهل بالحركة حتى آمن على نفسى من العدوان .. واذا وصلت الى فراشى خلعت حذائى وحمدت الله على أنه لم يصبنى أذى كبير فى يومى .. وأدعو الله أن يحفظنى فى اليوم التالى من أولاد الحرام .. وهل ترك أولاد الحرام لأولاد الحلال شيئا ؟ اسمع نصيحتى . كن على الحياد دائما . قد تدفعك الشفقة الى أن

تعطف على البعض ، ولكنك لا تعرف ما الذى يختفى وراء ادعائهم المسكنة .. تلك المرأة التى فقدت ذاكرتها ، ولا تعرف أين تسكن ، ومن أين خرجت ، والى أين هى ذاهبة ؟ هل تعرف ما اذا كانت حقا فقدت عقلها ، أم انها تمثل أمامك دورا ، وأنت تبحث لها عن أهلها ؟ وهل تعرف ماذا انتوى لها أهلها .. ولك أيضا ؟ .. مرة أخرى أقول لك فسد الكون ، وما من صلاح ، فليس لك الا أن تتجنب التردى فى الشباك والحبائل ، وهى منصوبة للأخيار فى كل خطوة ، وعند كل منعطف فخ على أهبة الاطبـــاق .

مد العجوز يده السمراء المعروقة ، ووضع القدح الدافىء على المنضدة .

قلت :

ـ ماذا على أن أفعل ، حتى أدخل ملكوت السموات ؟ قال المسيح اذهب وزع ثروتك على المساكين ، وصف حساباتك مع الناس ، وتعال اتبعنى .. أنصاف الحلول اذن لا تنفع ، وأنت تنصحنى بالحل الوسط .. قال المسيح أيضا من أحب أبا أو أما أو ابنا أكثر منى فلا يستحقنى . أحمل صليبك واتبعنى .

جذب ياقة معطفه حائل اللون يدثر بها رقبته المتغضنة ، وقال :

ـ قلت لك . هذه الدنيا فسدت . أكثر من ألف وتسعمائة سنة مضت على كلام المسيح ، وقد تغيرت الظروف والأحوال اليوم . يكفى المرء أن يحذر لنفسه .

ضم ساقيه الطويلتين ببطء . كدت أسمع قرقعة عظامهما . قلت :

ـ انى أتعـذب .. ما يجب .. ما أعتقد انه يجب .. لا أقدر عليه .. وما هو مستطاع .. ذلك الذى تنصحنى به .. يصيبنى بالغثيان والتقزز من نفسى .. ليس ما هو أكثر امراضا للرجل الشريف من احسـاسه بالعجز عن أن يمضى فى طريق الشرف الى النهاية . أما منتصف الطريق .. فهو يشعره فى النهاية بأنه ليس شريفا على الاطلاق .

تطلع الى الظلمة الرابضة خلف الشباك فى الخارج ، ثم قال :

ـ يابنى ، يكفى أن تكون مسـتريح الضـمير . افعل ما تستطيع ، ولا تفكر فيما لا تستطيع . انى أضع رأسى على وسادتى كل ليلة ، وأروح فى النـوم هادىء البال . هذا هو سر صحتى ، وطول عمرى . أنت تعرف اننى بلغت من العمر الرابعة والثمانين ، ولا زلت مستيقظ الذهن ، لا أشكو من شىء .. سوى بعض الأوجاع فى مفاصلى وجذعى . لم أندم يوما على شىء لم أفعله .

خيمت برهة صمت •

ثم نهضنا ليمضى كل منا الى فراشه ، فقد كان الليل قد أوغل بنا •

قلت له ، وقد هالنى ثقل السنين على منكبيه :

ـ كلامك سهل ، بسيط ، مشجع ، ولكن •• هنا •• فى أعماقى •• شيئا يعضنى ، ويرفض أن يرتضيه •

٣ ـ نصيحة من أستاذ

•••••

أشار الى أرجاء الغرفة من حوله ، وقال :

ـ أنظر الى العالم كأنك مخبر سرى •• لا تغرنك الظواهر التى تكتسى بها الأشياء والأحداث والناس ، بل وأقرب المقربين منهم اليك أيضا •• بل وعلى الأخص هؤلاء •• كن مرتابا فى كل شىء ، فكل ما حولك قناع مزيف ، خدعة ، بل أنت نفسك، بالنسبة الى الآخرين خدعة •• هل تقرأ الروايات البوليسية ؟ لا بد انك فعلت •• أنا فعلت ذلك • كنت ألتهمها التهاما • ولئن نسيت أحداثها وأبطالها ، الا أننى تكيفت بها وتطبعت بفلسفتها •

التحقيق ، التحقيق . قد يكون عقب سيجارة ، أو قطعة خيط ، أو خصلة رفيعة من الشعر الى جوار الجثة هو الطريق الى كشف السر ، والعثور على القاتل .. لكل شيء لغز .. ولكل حدث قاتل .. وعليك أن تبحث عن القـاتل ، بل وعلى القتـلة من حولك .

صوب سبابته الى الفتى متهما :

ــ بل وفى أعماقك أيضا أيها القاتل المخدوع .. معذرة. تماديت معك . ربما ليس من حقى ذلك ، فاننا لم نتعارف جيدا، ولكن مادمت قد جئت الى تستنصحنى فخذنى على علاتى .. ماذا كنت أقول لك ؟ آه ، ابحث عن السر الكامن وراء الظواهر من حولك . فكل شيء من حولك ، والى ما لا نهـاية ظواهر خداعة . وعليك أن تنحى عن طريقك كل ما هو زيف ، كل ماهو ثانوى وعرضى ، وأن تضع يدك على الأصـلى والجوهرى . وستجد ان هذه الكثرة الهائلة فى الظواهر ، هذه الكثرة المدوخة المزلزلة هى خداع للنظر .

صوب سبابته الى الفتى متحديا من جديد :

ــ وعليك أن تثبت أنظـارك بلا خـوف ولا وجل على الجـوهرى . والجـوهر قليل . هو قليل لأنه لا يتطرق اليه الزوال .

استدار . ومد يده الى الرف الخلفى يسحب منه كتابا :

ـ سأعطيك هذا لتقرأه وستدعو لى بطول البقاء .. خذه .

ـ ولكنها رواية بوليسية ..

ـ أجل بوليسية .

ـ ولكننى جئت من أجل ...

قاطعه الأستاذ مستطردا :

ـ ولأنها بوليسية فهى سترشدك الى ما يجب أن تـكون طريقتك فى استجلاء الحقيقة الكامنة فى هذا الوجود . عليك يا أخى ، أن تبحث عن القاتل ، عن الأصابع الملطخة بالدماء وراء هذه الجثة الضخمة التى تشغل حيز الوجود هذا كله .. أرى الحيرة قد زادت فى عينيك .

أجاب الفتى متلعثما ، وقد اختلطت عليه الأمور :

ـ أجل ، معذرة .. فأنا ..

ـ ميتافيزيقيا الرواية البوليسية .. هذا هو طريقك فى الدين والسياسة والاجتماع والأخلاق بل وفى الحب أيضا .

ـ عنوان الكتاب « جريمة قتل فى وضح النهار » ؟!

يضحك الأستـاذ ، لمعت سـنة ذهبية فى مقدمة الصف العلوى :

ـ ستقول جئت للحكيم يعيننى ويرشدنى فاذا به يداعبنى •
ولكن مهلك • ان الطريقة التى ينظر بها المخبر الى العالم الذى يقع تحت طائلة تحرياته انما تنطوى على وجهه نظر الى الوجود: الشك المعمم أو تعميم الشك • قبل أن تثبت ادانة فرد بعينه من المجموع الذى يتـألف منه حقـل تحرياته ، يثبت المحقق نظرته المتفحصة على أغلب الأشخاص أطول وقت ممكن • وليس بلازم أن يخيم الشك على مجموعة من الأفراد وتسلط عليهم نظرات الاتهام ، بافتراض اداتتهم ابتداء •• بل ان هذا الشك يمكن أن يخيم أيضا على ديكور ، على أشياء ، على غير ذلك •

أخرج الأستاذ من جيبه علبة نحاسية مستديرة • أخذ منها نتفة من السعوط دسها فى أنفه • عطس مرتين • زلزل المكان ، وتصـاعدت من الكتب الكثيرة على الأرفف غمامة خفيفة من التراب الناعم •• ثم التفت الى الشاب وسأله :

ـ قلت لى ما اسمك ؟

أجاب الشاب بتواضع شديد :

ـ زيد ، ياسيدى • زيد •

ـ آه ، زيد أو عبيد ، ليس هذا بالمهم •• وليس المهم أيضا هو كيف تواجه الأشخاص والأشياء نظرة الارتياب ، ولا ما تسفر عنه نظرة الاتهام الموجهة ، بل ان الجدير بالاعتبار على الأخص

هو أن تلحظ كيف ان كلا ممن توجه اليهم النظرة ، حتى الأبرياء منهم ، يحاول الاختفاء والهرب ، وتفادى تلك النظرة .. ان الرواية البوليسية الجيدة تعلمنا ان العالم كله لديه شيء يريد خفاءه ، وان كل واحد منا ، حتى لو لم نكن بصدد جريمة ارتكبت مدان ومذنب .

يزداد الزائر الشاب أقداما . ويمد يده لتناول الكتاب :

ـ سيدى الأستاذ ، لم أكن أتوقع ..

لمعت عينا الأستاذ أشيب الشعر ببريق الانتصار :

ـ هذه أولى الخطوات الى الحقيقة .. ان تتوقع الأمر حيثما لم تكن تتوقعه . الاثم مستبد بالناس ، والخطأ مستحوذ مسيطر على المصائر ، ويحاول كل أن يخفف من وطأة احساسه الحاد بالذنب الشامل وذلك باتهام الآخرين والتحقيق معهم .. اطرح عن كاهلك البراءة والطمأنينة . قل لراحة الباب وداعا .. وداعا ..

يقلب الفتى النظر فى غلاف الكتاب من الناحيتين :

ـ كم ثمنه ؟

يلوح الحكيم البدين بيديه نافيا عنه تهمة بيع الكتب كأنه أستاذ جامعى يحقق معه فى هذا الأمر :

ـ لا .. لا .. مجانا أعطيه لك .

ـ ولا تكاليف الطبع ؟

ـ انه هدية •

يضغط على مخارج ألفاظه :

ـ هدية نافعة •

يضع الفتى الكتاب تحت ابطه بعنـاية ، ويقول مصافحا الحكيم :

ـ شكرا ، شكرا • سأقرأه كلمة كلمة ، وسأعمل بنصيحتك، فأنا جد مكترث بالبحث عن الحقيقة •

يشيعه الحكيم الى الباب قائلا :

ـ حذار • كن محققا حتى لا تكون محلا للتحقيق !

يغيب الفتى عن الأنظار •

عندما يصبح الحكيم وحيدا فى صومعته يجيل النظر فى كتبه العديدة التى تغطى الجدران ، ويتحسس بعضها القريب منه • ويبتسم قائلا :

ـ أجل ، مجانا أعطى كتـابا أول •• لكن عندما تتـأزم أمورك ، وتتعقد خيوط الحياة حول عنقك ، ستأتى الى طالبا النجاة • وعندئذ سـتشترى كتبى واحـدا تلو الآخر ، بأغلى الأسعار • أرأيت ؟ الكتاب الأول طعم • فاذا قرأته وسرى فيك تأثيره فقد تسممت وعرفت سبيلك الى كتبى التى تزحم أرففى

المكتبات ودور الناشرين .. وكل كتاب هو طعم ، للكتاب الذى يليه . لأفيون . أفيون . كل شىء أفيون .

يخبط كرشه برضاء ويقول :

ــ وفى النهاية ، كله مكسب والحمد لله . طبعات تلو طبعــات من كتبى . ندوات . مناقشــات . مقــالات مقرظة . وجوائز فى البــدء تشجيعية . ثم تقــديرية . ثم طبعــات . وطبعــات . وطبعــات .

يقول كمن يتلمس لنفسه الأعذار :

ــ الاثم مستبد بالناس ، والخطأ مستحوذ على المصائر .

ماذا أفعل ؟ يحاول كل أن يخفف وطأة احساسه بالذنب الشامل باتهام الآخرين والتحقيق معهم .

يغلق النوافذ ، ويسدل الستائر . ثم يقبع فى كرسيه وقد شبك أصابعه . يخيم الصمت ويغرق فى تأملاته كعنكبوت نسج من حوله الخيوط ، وقبع فى الداخل كاتما أنفاسه بانتظار فراشة أو ذبابة أو حتى بعوضة .

يدق جرس الباب بعد هنيهة . يقول الأستاذ الحكيم بصوت غير مكترث وكما لو كان وافدا من أعماق السنين :

ــ أدخل .

ويدخل شاب جديد يبدأ الحديث الذى دار من قبل مع الشاب السابق بينما تبحث أصابع الأستاذ على الرفوف عن نسخة من رواية بوليسية أخرى •

٤ ـ فى الطريق مع المدير

* قال له المدير وهو ينزل معه السلم •

ـ دعوتك يا زيد ، لأننى أريدك أن تحضر معى هذا المساء « الرقصات الجنائزية » ستعينك جدا على تكوين رأى سليم فى موضوع الملف الذى أحلته عليك •

أصبح زيد يتمنى فى بعض اللحظات ألا يفرغ من بحث هذا الملف أبدا • ان صورته تظهر على صفحات الجرائد ، ويحظى بمعاملة خاصـة من قبل المدير الجـديد ، فها هو يتأبط ذراعه ويتبسط معه فى الحديث فى طريقهما الى سيارته • وها هو بواب العمارة يقوم له عندما يراه داخلا أو خارجا ، وهو رجل مهيب الطلعة مثل الأباطرة ويشيعه الى الطريق بالتحيات والدعوات الصالحات •

وكثيرا ما يذكره موضوع ذلك الملف بقصة صديقه المحامى العجوز الذى حنكه سوق القضايا وابنه الشاب حديث التخرج •

عندما عهد اليه أبوه بالحضور فى قضية ليطلب فيها التأجيل ، واذا بالأبن يعود آخر النهار الى أبيه هاشا باشا ويقول له فخورا:

ـ أنجزت القضية على ما يرام • وحصلت على حكم فيها لصالحنا •

ولدهشة المحامى الشاب أغتم الأب وقال له مؤنبا :

ـ ومن قال لك ان تطلب الحكم فيها ، يافتى ! فى كل تأجيل نقبض أتعابا ثم أتعاب • وها أنت تضيع على المكتب بقلة خبرتك الدجاجة التى كانت تبيض لنا فى كل مرة بيضة من ذهب • خيبة الله عليك !

وها هو زيد يذهب مع فخامة المدير الى حفل راقص بسبب الملف الأزرق • أليس اذن دجاجة تبيض له كل يوم بيضة من ذهب ؟ ولكن كان ثمة دافع من الاخلاص يحثه على انجاز الموضوع ـ مثل كل الموضوعات التى أحيلت عليه ـ بأسرع وقت ممكن ، حتى ان قالوا له فى نهاية الأمر خيبة الله عليك • فلم يكن للسعى الى بلوغ الحقيقة من معنى فى نظره سوى عدم الرغبة فى الخداع ، ولم يكن يتطلع الى لحظة الفراغ من العمل الا على أنها لحظة احساس عميق بالفيض والعطاء •

قال له المدير متأففا :

ـ انه حفل يقيمه بعض رجال الأعمال • كم يثير تقززى

هؤلاء الناس بأيديهم المكتنزة الحمراء ! ما من شيء يحز في النفس قدر الخضوع لأناس غير معروفي الأصل تافهين ، فهذا يثير الايمان بأن الحظ والمصـــادفة وحدهما هما اللذان رفعا الواحـــد فوق الآخر ..

التفت المدير الى زيد مستدركا :

ـ لكنهم يمولون مكتبنا الى حد بعيد ، كما تعلم .

فتح السائق باب السيارة . دخل المدير اليها وألقى بجسمه على الأريكة الخلفية اللينة . هم زيد أن يدخل في اثره فقد فهم أن حديث المدير له لا زال ممتدا . صده المدير بحركة من يده الرخصة اللينة ، وقال له :

ـ لا يمكن على أى حال أن تقوم حضارة رفيعة ألا بقدر من التمايز بين الطبقات .

ـ ولكنك كنت تقول ..

قاطعه بلهجة صارمة :

ـ مكانك الدراجة . اركبها وسر بمحاذاتى . سنكمل الحديث فى الطريق .

انطلقت سيارة المدير تنفث دخانها الأسود وراءها . لحق بها زيد والتفت الى المدير الذى أطل اليه من النافذة . قال له :

ـ العام القادم تستحق دراجة بخارية بدلا من هذه •

أحس زيد بأنه انما يطير بدراجته فى الهواء ، فقد كان ذلك تلميحا لبقا الى الترقية •

واصل المدير حديثه قائلا :

ـ سترى كيف تتيح الثروة ، مهما كانت وسائل اكتسابها ، الفرصة لازدهار أكثر الفنون رفعة وعراقة • تفهم ماذا أقصد ، الرقص بطبيعة الحال • فهى تمكن من جلب أفضل المدربين ، وانتقاء أجمل النساء •

قفزت خواطر كثيرة الى رأس زيد • لم يكن أحد ليفهم ان الفن ليس فى جوهره مجرد وسيلة ترفيه وامتاع رخيص ، بل هو وسيلة أصولية يحقق بها الانسان سعيه لادراك معنى الحياة والوجود • ان الملحوظ فى الفن على الدوام انه شىء داخل اطار المجتمع وخارجه ، مرهون به ومتمرد عليه ، يعبر عنه ويرفضه فى الوقت ذاته • والذى تحتاجه فكرة الصالح المشترك حقا هو نظرية للفن كتعبير عن نوع من الادراك مختلف عن العقيدة الاجتماعية السائدة فى وقت معين ، ومتجاوز للحدود الزمنية والمكانية الضيقة لتدفع المجتمع وقيمه على الدوام الى مستقبل أفضل تلقى فيه مقومات الصالح المشترك تصورا أكثر اقترابا من المستويات العليا فى الاطار الانسانى •

التفت زيد ، وقال للمدير :

ـ لكن ..

وهم أن يوضح له أن الفن فى مفهومه الصحيح عملية خلق وتجديد مستمرين للمجتمع وقيمه . عاد زيد يكرر ذات الكلمة « ولكن .. » محاولا أن يفتح بها كلاما عن أن النظم والحكومات ليست سوى تحويل لرؤى الفلاسفة والفنانين التقدمية الى حقائق ملموسة . لكنه عاد سريعا وسكت ، فقد لكزته فى ظهره عبارة قديمة تلقاها ذات يوم فى خطاب من صديق . «كل عيش واسكت» هذا ما قاله له الصديق الحريص. كان زيد فى تلك الآونة يحضر مقالات مختصرة عن «مفهوم التقدم» لينشرها فى الجرائد اليومية، ولكنه طواها ونكص ، كما هو شأنه كلما هم أن يقدم على عمل جاد فيتفضل عليه أحد الخلصاء بالنصح والارشاد .

لم ينبس زيد بأى من هذه الخواطر ، فلم يكن يريد أن يلم به ما أصاب وكيل الادارة من قبل ، لكنه أخذ يحكى للمدير قصة أحد الشبان من أصدقائه أراد ذات مرة أن يكسر التقاليد فاختار الطريق الصعب . أراد أن يبكى الناس، ولم يرقص . فهب فى وجهه ناقد أصلع كالح أحمر الشارب . وقال له : اذا كان

هذا هو الخروج على التقـاليد فمرحبا بالتقـاليد .. وهتفت الجماهير من خلفه «مرحبا بالتقاليد» وصوبت الأصابع تشير اليه صائحة : تشاؤمى ! تشاؤمى !

أومأ المدير الى السائق أن يوقف السيارة . كادت دراجة زيد أن يختل توازنها وتصطدم بالرصيف . أطل المدير من النافذة، وسأل بلهفة :

ـ ألم يفهم أحد هذا الشاب ؟

هز زيد رأسه بالنفى ، وأردف يقول :

ـ كاد الشاب المسكين أن يصيبه أذى كبير .

وضع زيد رجله على البدالة وهم بالمسير .

سأله المدير .

ـ وكيف نجا ؟

ـ تزوج ابنة أحد باعة الكباب ، وطلق الكتابة الى غير رجعة ، مكتفيا بأرباحه من تجارة «المأكولات السريعة» للمترددين فى أيام الزيارات على باب السجن الكبير .

تحركت سيارة المدير . خيم الصمت برهة طويلة .

٥ ـ الصفعة الأخيرة

• • • • • • •

• • • • • • •

قال الأب وهو يخطو الى باب الغرفة :

ـ فى الحياة أكثر بكثير مما تعلمته من كتبك ، أيها الشاب •

ـ ان طائر الحياة يجرجر فى الطين ذيله الطويل الأنيق • فى الغروب يا أبى يتحطم الفجر •

صوب العجوز نظرة من عينين زجاجيتين لا تطرفان وقال :

ـ من أخطر المهن فى عصرنا ، انقاذ السفن الغارقة •• طابت ليلتك ، يازيد •

دلف الى غرفته بخطوات قصـيرة بطيئة واثقـة • ولم يلتفت الى •

٦ ـ السـعادة الكبرى

* فى الصباح ، كنت أتصفح جريدتى • وقع بصرى فى عامود « حظك اليوم » على ما جعل قلبى يدق فرحا • قرأت ،

وأنا من مواليد برج الحمل : « اليوم تلتقى بسعادة كبرى . ويفتح لك الحظ ذراعيه » !

قفزت من سريرى جذلا ، وأخرجت حلتى الجديدة وقميصا نظيفا وربطة عنق زاهية ، وتأنقت فى ارتداء ملابسى . ولم يكن ذلك لأننى كنت سأذهب الى مكان آخر غير مكتبى ، ولكن ألم أكن على موعد مع السعادة ؟! ومن يدرى ، فقد تكون تلك السعادة غادة حسناء . لذلك كان لا بد أن أقابل تلك الحسناء .. أعنى تلك السعادة .. بالمظهر اللائق بها .

خرجت أخطو فى طريقى الى مقر عملى ، أحسست بنفسى خفيفا كالريشة وكان ذلك الكرش المحترم الذى أصبح يتقدمنى لم يكن كرشى أنا ، أو اذا كان كرشى فكأن شخصا آخر يحمله عنى اليوم . سرت أتلفت يمينا ويسارا . أتطلع الى نوافذ البيوت وشرفاتها ، والأمل يلمع فى عينى . كنت أتمهل قليلا عند كل منحنى فقد تكون السعادة فى انتظارى « على الناصية » .

لم أعد التفت الى نصائح . لم أعد أطمع فى عمل صالح ، فأنا « شبيك لبيك . أيها الحظ ، أنا عبدك وبين يديك » أيها الحظ الرائع ، ما أحوجنا الى مثاليات وايجابيات ، مادامت الغيبيات أقوى من كل الأقوياء ، ولها الينا ايماءات واشارات، على ناصح مثلى أن يفطن اليها فحسب ، فيحصل على كل الحلول؟

ألم يصدق معى الحظ بدل المرة مرات ؟ وحتى اذا لم يصب أحيانا فالذنب فينا نحن لقصــور ملكاتنا عن الفهم ، أما هو فكلمته لا تنزل الأرض !

وصلت متأخرا بعض الشىء الى مكتبى رغم صرامة رئيسى الجديد ولسانه القارص . الا أنه تغاضى عن تأخرى لشدة انشغاله بانجاز بعض الأعمال المستعجلة . لكننى لم أعز ذلك الا الى أن الحظ فى صفى اليوم .

جلست الى أوراقى وملفاتى أتصفحها وأقلبها شارد الذهن أفكر فيما علها تكون تلك السعادة الكبرى التى سألتقى بها ، وما هو ذلك الحظ الذى سيفتح لى ذراعيه : هل هى ترقية .. وقد مضى على فى درجتى عشر سنوات ؟ أم هى علاوة تزيد مرتبى بضعة جنيهات ؟ أم هى مكافأة مالية أستطيع أن أســدد بها ديونى ؟ وسرح بى الخيال .. فتصــــورت نفسى فى مكان رئيسى آمر وأنهى ، وأصيح وألقى بالأوراق فى وجه مرؤوسى مرغيا مزبدا كما يفعل .

واذا بى فى حركة لا شعورية أمسك بالملف الذى أمامى وألقى به على مكتبى مقلدا رئيسى . ولكن يبدو أن عودتى الى عالم الواقع كانت قد آن أوانها . فقد شعرت بأعصابى تهتز عندما ارتطم الملف الذى ألقيت بزجاجة الحبــر فانكفأت وانســكب مدادها ملطخا الأوراق بلونه الأحمر القانى . ثم سالت جداول

رفيعة منه على جانب المكتب وأخذت تتساقط قطرة قطرة على السجادة التى تغطى أرض الغرفة • وقام الزملاء من على مكاتبهم صائحين • « حاسب ، يازيد ! الحبر ! حاسب ! •• »

وكما غرقت الأوراق فى لجة المداد غرقت أنا فى لجة من الارتباك والخجل • وفتح الرئيس باب حجرته الزجاجى مستفسرا عما حدث • وما أن رأى مكتبى الذى كان كقرية اكتسحتها مياه الفيضان حتى صاح فى بصوته الهادر : « كده ، كده ، ياسيد • أتلفت مستندات المشروع •• طيب والله •• والله لاخصمن يومين من ماهيتك حتى تنتبه الى شغلك فى المرة القادمة ! »

وجاء الفراش ليجفف المداد ، ويرفع الأوراق . وينظف السجادة •

ولكننى سرعان ما استرددت هدوئى وعلت الابتسامة شفتى • ان السعادة الكبرى آتية ولا شك عن قريب جدا •• بعد لحظة ، أو بعد ساعة أو بعد بضع ساعات على الأكثر • وهذه حادثة صغيرة لا يجدر أن تعكر صفائى وتثنينى عن ترقب السعادة التى وعدنى بها الحظ اليوم •

وفى طريق عودتى الى البيت بعد انتهاء العمل أخذت أخطو كالطاووس ، وقد تراقصت أمام عينى العبارة الفاصلة فى حياتى، « اليوم تلتقى بسعادة كبرى ، ويفتح لك الحظ ذراعيه » وفى

غمرة شرودى لم أتنبه الى صيحات المـارة واشـاراتهم الى : « حاسب ! حاسب ! » ويبدو ان الوقت كان قد حان لكى أعود الى عالم الواقع مرة أخرى .

فقد شاهد المارة سيارة تستدير عند المنحنى وتتجه نحوى بسرعة . وفهموا أننى لم انتبه لها حتى أتفاداها . بوغت حقـا بالسيارة المخيفة وقد اقتربت جدا وزمجرت فراملها على بعد أقل من خطوة منى . قفزت متراجعا الى الرصيف ، مجفلا كقرد يطارده ذئب . الا أن الذئب .. أعنى السيارة .. كانت قد ذلت منى وصدمتنى فى جانبى الأيسر .. وسقطت على الأرض متأوها . وتجمع الناس حولى .

ولكننى أصبحت أومن بالحظ . وكل شىء مقدر ومكتوب. ولم لا يكون القدر قد سير الأمور على هذا النحو البارع حتى تحملنى عربة الاسعاف الى المستشفى لألتقى بالسعادة الكبرى هناك ؟!

التعليمات

* تعالى من الشارع فجأة صياح وصفير . جلجل على الأسفلت وقع أقدام مهرولة . ما الأمر ؟ أحفل زفاف ؟ أجنازة ميت ؟ أم حريق شب فى الأزقة ؟

اندفع الجميع نحو النوافذ . فتحت الأبواب ، واطلت الرؤوس وسرت فى كل مكان همسات الدهشة . ولما رأى « أعضاء المكتب الفنى » المدير محمولا على محفة .. ومن ورائه الوكيل ثم كبار الموظفين حسب ترتيب اقدمياتهم ، تدافعوا الى سلم الخدم يبغون الخروج ليلحقوا بالمدير ، فيكونوا فى معيته ، وتلتقط لهم الصور وتنشر فى اليوم التالى بالجرائد . وقد يطلب المدير احدهم فاذا وجده غائبا تعرض لأقصى العقاب .

اتجه الركب عدوا الى الميدان الكبير ، ووقفوا يحيطون بالمدير الذى قفز الى الأرض فى خفة ابن العشرين بفضل تعاطيه

مقوى الحديد • وجرى الى السـور الكبير المحوط بالميدان الكبير ، تسلقه فى رشـاقة جدى جبلى ، واطل من حافته الى الداخل •

خيم الصمت والتوتر برهة ، فتهامس الحاضرون : ماذا تراه مبصرا ؟ ماذا تراه مبصرا ؟!

وقف موظفوا المكتب جامدين يضربون فى اودية الحدس والتخمين ، ولبثوا فى أماكنهم ينتظرون علامات أو بوادر من المدير ، فهم رهن اشارته فى كل وقت بالليل او بالنهار •

تعالى من داخل السور دخان اسـود كثيف ، وصرخات استغاثه وصهيل جياد •

وصاح الوكيل مناديا المدير مستفسرا :

ـ ماالذى عكر صفو صباحنا يا فخامة المدير وكدر سكينته؟ ارجـو سرعة التحقيـق •

وسأل مساعد الوكيل :

ـ أترى المدينة ذاهبة طعمـة للنيران قبل ان يتنبه اليها الناس ؟

فرد عليهما المدير من حالق :

ـ لاشىء •• لاشىء •• شىء فى طريقه المرسوم يجرى •

ومن كوة فى السور الكبير اندفعت عربة مغطاة ذات عجلات خشنة كبيرة ، يقودها فلاح اعجف يهوى بسوطه على ظهر ثور أسود عله يسرع فى المسير • وفى داخل العربة كانت امرأة فلاحة عجوز محجبة •

اجفلت الدابة فانحسر الوشاح عن رأس الفلاحة ، عندما همت العربة باجتياز النهر الأصفر •

صاح احد الواقفين :

ــ الامبراطورة ••• !

علق احد المارة :

ــ انها ميتة !

ــ كلنا سنموت !

ــ انها تتعذب !

ــ وعذبت الكثيرين •

ــ العالم مكان للعقاب •

ــ قامرت وخسرت •

ــ وخسر بخسارتها الكثيرون •

انطلقت العربة باقصى سرعتها عندما الهب السوط ظهر

الثور • واستدارت عند المنعطف ، وغابت عن العيان ، وقد اثارت من خلفها الغبار •

نزل المدير • نفض ثيابه •

اخرج زجاجة الكولونيا من حقيبة صـغيرة • بلل يديه ووجنتيه المســتديرتين • فاح عبيرها • انتهــز موظفو المكتب الفرصة ، فملأوا رئاتهم بالهواء المعطر •

اســتدعى المدير الوكيل • انتحى به جانبا • اخرج ورقا وقلما ،واملى عليه المدير صيغة تعليمات جديدة سميت فيما بعد «بلائحة تجربة السور»

بعد الديباجة المعروفة املى عليه المدير قائلا :

ـ المادة الأولى : السيادة للفضيلة •

توقف الوكيل عن الكتابة وسأل :

ـ معذرة ، ياسيادة المدير اهذه «نظرية الحق الالهى ؟»

اجاب المدير بصرامة :

ـ لاتقاطعنى • انها أكثر معقولية منها •

وأردف يملى التعليمــات :

ـ النظام الاجتماعى جزء من النظام الطبعى ، وامتــداد لــه •

لم يقو الوكيل على مغالبة فضوله وشغفه باظهار البراعة والمعرفة :

ـ مرة أخرى ، ياسيدى .. ومنذا الذى يتحمل غوائل الطبيعة واعاديها ؟ أعنى مسئولية كل تلك الفيضانات والعواصف والبراكين ؟

نهض القط الراقد على حائط الحديقة المجاورة . مط جسمه الرمادى . ونشر مخالبه . فغرفاه حتى ظهرت انيابه البيضاء ولسانه الوردى . وانخرط فى المواء . ثم هبط الى الأرض ، واختفى بين أقدام الواقفين .

صاح المدير منفعلا :

ـ قلت لك لا تقاطعنى . انت تقصد احراجى امام الجمهور ؟

انتزع الورق والقلم من الوكيل ، ودفع بها الى يدى مساعد الوكيل وقال بلهجة آمرة :

ـ اكتب . سيضرب المثل الأعلى فى الأخلاق لكل الناس . وسيحمل ذلك الجميع على الطاعة والولاء . افراد الاسرة الواحدة والحى الواحد والمدينة الواحدة مسئولون كل منهم عن الآخر . كل جار مسئول عن جيرانه . اذا ارتكب اخوك ضررا فانت الذى تدفع . ومن ثم حذار ان يغيب نظرك عن تصرفاته . والنتيجة ..

على كل ان يراقب الكل ، وعلى الكل ان يراقبوا بعضهم بعضا •
الحلول القديمة صالحة على الدوام ، متى أحسنتم تفسيرها •

واصل المدير كلامه متلفتا الى الوكيل بنظرة ذات مغزى

ـ قال كونفوشيوس ، ياعزيزي : عندما يكون سلوك المدير قويما ، تكون ادارته فعالة بلا أوامر •

التفت المدير الى الجموع ، وقال :

ـ لاتكونوا كثيري الطموح حتى لاتخجلوا من ضعف امكاناتكم لتحقيقها • غيروا جلودكم من وقت لآخر مثل الثعابين ، ولا تخشوا الأيام •

ركب المدير النقالة • مضى الحجاب الأربعة يعدون بها ، والمدير يوزع التحيات يمنة ويسرة كأنه «بوذا الرحيم» وعندما رأى زيدا يقف محشورا بين الجموع اشار اليه ان يأتي •

خرج زيد من الصف ، وذهب الى المدير وظل يعدو الى جوار النقالة وهو يستمع الى توجيهات المدير الصارمة له :

ـ اريدك ان تمر على مكتبي هذا المساء • ثمة تطورات جديدة •

أومأ زيد رأسه موافقا •

مضى المدير يقول بصوت خفيض ، كما لو كان اختصه هو بهذا الحديث :

ـ عليك أن تحـذر البحارة • انا أزودك بالضـوء مثل الشمس • انت ابنى وصفى • عندما تجوع اطعمك • وعندما تخطىء اقومك • وعندما تأتى الى آخذك بين ذراعى • ليس ثمة ما تحتاج اليه فى الواقع • انت فلاح مثلى ، ولست من مخزنى التحف والعجائب •

التقط أحد الصحفيين صورا للمدير وزيد •

أثار ذلك الحسد فى قلوب الآخرين •

تمنى زيد ألا يبدو فى هذه الصور التذكارية لاهثا •

قفز ديك بدين أحمر العرف والذيل الى سطح قريب • أطل على الشارع المكتظ متوجسا • ثم نفض جناحيه فى خيلاء ، وصاح كان الفجر قد لاح عند الأفق •

قُبَيل الانصراف

* ضحكت رجاء ، وقالت بصوتها ذى الرنين القوى والنغم الموزون :

ــ كان يسمح للناس فى قرية جدتى أن يتلاقوا ، ويجتمعوا أينما حلا لهم لكن منذ اللحظة التى تتوثق فيها أواصر الحب بين الناس وجب أن يتدخل العمدة أو شيخ الخفر للتفريق بينهم حتى لا تقع الكارثة . وكثيرا ما قدم المحبون الى المحاكم بتهمة الاجتماع غير المشروع . وكان الناس يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفة القواعد حتى صار الأمر عرفا ، والعرف ملزم كالقانون .

تغير صوت رجاء ، فأصبح متكاثفا مثل الدخان ، ومضت فى حديثها :

ــ تقول أمى ان البنت الآن تدور « على حل شعرها » لكن أيامها كان الأطفال فى طفولتهم لا يعرفون معنى الطفولة .

وسرحت ببصرها تستذكر جدتها .. كانت تجلس على الأريكة ذات الوسائد البيضاء فى غرفتها خافتة الضوء المعبقة برائحة البخور والمستكة . كان يحلو لها الثرثرة وهى ترشف أقداح القهوة بالحبهان . كانت تطحن بنفسها البن ، وتضع الكنكة على موقد السبرتو الذى كان يلازم المنضدة الصغيرة بجوار سريرها .. ذكريات قديمة .. يا للجدة المسكينة . كلما تقدم بها العمر وضعف بصرها تسرح بخيالها مع الأيام القديمة . ولكنها أيضا كانت تضيف من عندياتها فى بعض الأحايين تعليقات وزخارف ومبالغات تقصد بها جذب انتباه السامعين اليها وشدهم الى أحاديثها . وهذا شأن الأجيال التى قاربت حافة الاندثار ، تتشبث بالأجيال اللاحقة ، وتلوح لهم أحيانا بالمغريات ، وأحيانا بما يخيف حتى تجذب أنظارهم وتسمرها عليها .

قدمت القهوة التركى الى ضيوفها ، وقالت :

ـ حكايات قديمة ، يا أولاد . كان السادة الأشراف يضربون الأجداد . وكان فى وسع أصغر الأغوات أن يحطم أكبر الرؤوس . وكان الأجداد يضربون الآباء والاباء يضربون الأحفاد ، واذا بكى المضروب وملأ الدنيا عويلا قيل هذا أفضل له ، حتى يعرف ان الدنيا ليست كلها له . وكلما عرف ذلك مبكرا كان ذلك خيرا له .

هزت رجاء رأسها ، وتمتمت وهى ترى جدتها من بعيد ترشف قهوتها ببطء :

ـ هذه كانت القاعدة التى قام عليها الميراث الاجتماعى ٠

وكانت الجـدة « وديعـة الله » تتلذذ من سرد ذكرياتهـا القديمة :

ـ كان أول ما يفكر فيه الأولاد عندما يصحون من النـوم كل صباح هل يضربهم الآباء اليوم ؟ فاذا ما ضربوا يوما ضربا قليلا قبلوا أيديهم ظهرا وقلبا، ورفعوا عيونهم الى السماء قائلين : حمدا ، ثم حمدا ٠ قليل زائل ، خير من كثيرا دائم ! تصوروا ، كانوا يضربونهم حتى لتعلم الأناشيد الدينية ؟ !

سقط قلم زيد على الأرض فأحدث جلبة قطعت حبل التفكير عند رجاء ، وأعادها الى واقعها ٠ ما اسعد أن نعود الى الواقع ٠ هو كل ما هو كائن وكل ما كان ، وما سيكون ٠

عادت رجاء تقول بعد قليل :

ـ كانت القاعدة ان من الخير للانسان أن يكون جلادا من أن يكون ضحية يعلق فى عنقه حبل المشنقة ، أو تمد رقبته على النطع المخضب بالدماء ، ويطاح بها ٠

سألها زيد وهو يراجع صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة :

ـ ألم يفكر أحد فى مخرج ؟

التفتت اليه رجاء دهشة :

ـ ياالك من ضفدعة بلهاء ! بالطبع كان لابد من البحث عن مخرج •

انضم اليها مرزوق قائلا :

ـ كما هو الحال على الدوام • الجميع يبحثون عن أبواب للخروج ، ولو كانت أبوابا خاطئة ، أليس كذلك ؟

اخرج من جيب سرواله الخلفى مطواة وأخذ يبرى بها قلمه•

لمحت الزميلة نجية ـ وكانت حاملا ـ عامل البوفيه يمر فى الردهة • نادت بصوت عال وطلبت منه :

ـ سندويتش عجة ، يا عويس • وكتر السلطة ، وحياة عينيك •

لم تكن تستطيع الافطار فى البيت فهى تسكن بعيدا ، وزحام المواصلات يحتم عليها النزول مبكرا ، فكان الجوع يدغدغ أمعاءها كلما زحفت ساعات النهار •

تثاءب الزميل سعداوى • ظهر اللسان الأحمر • انخفض الفك الأسفل وانخفض حتى بدا الحلق والاضراس السوداء كالطين • قال :

ـ عندى فكرة •• نعمل جمعية •• كل واحد يدفع ••

لكن رجاء كانت تواقة الى أن تمضى فى ثرثرتها • انها

رياضة يومية ممتعة • وتلهف الباقون الى سماع القصة • وان الحديث عن الماضى يدخل على النفوس سكينة من نوع خاص •

تعلقت العيون بشفتى رجاء :

ـ كان أمام الجيل الجديد أن يسلك طريق آبائه فينقلب الى طغمة من الاجلاف السكارى •• أو أن يكافح من أجل العلم والتقدم •

التقدم ؟ التقدم !!

صدمت هذه الكلمة اذن زيد بشدة • رفع رأسه عن الأوراق التى كان يراجعها ، وزاغ بصره بعيدا •

ندت من مرزوق صرخة قصيرة ، فقد زلق النصل وجرح أصبعه •

أردفت رجاء ضاحكة :

ـ لكن لم يكن أحد يشعر بجهله وقيمته الضئيلة أمام الله ، وأمام الفكر ، وأمام الجمال ، وأمام الطبيعة • أما أمام الناس فلم يكن أحد يحافظ على كرامته الذاتية •

الكرامة الذاتية !

خفق قلب زيد عند سماعه ذلك • أحس انه مقبل على كشف

جديد . الايمان بكرامة الانســـان . هـــذه فكرة . ثم الايمــان بالتقدم . هذا رصيد ضخم .

ترك كل أوراقه . أغلق الدرج الأوسط بالمفتاح . واســـند ذراعيه الى المكتب وقد تأهب للاصغاء باهتمام لحديث رجاء .

دخل الفراش ذو الأزرار النحاسية . لم يشعر به أحد ، فهو متلصص مثل الثعبان . وفريسته عادة أكبر منه . وقف الى جوار زيد وانحنى يهمس فى اذنه ان المدير يريده . تلكأ حتى يلتقط أكثر ما يمكن أن يلتقطه من كلام رجاء التى لم تتنبه الى الفراش رشيق الحركة ضئيل الجسم . أصبح حديثها مثيرا ، لكن الفراش عاد يستعجله وقد صوب اليه نظرات باردة من عينين رماديتين لا تطرفان . قال له بصوت مبحوح :

ـ المدير عنده ضيوف . وهو على أهبة الانصراف .

الحديث يمضى لكن المدير يشع كالشيطان . مهيب شرس الطباع .. الجميع يعجبون به بقدر ما يخشونه . ومنذ أن شـــغل منصبه ، وهو يثير فى النفوس رعدة خفية . وقد عرف عنه فى دوائر المديرين انه مراوغ من الطراز الأول ، متأهب للانقضاض على الدوام .. كان هذا هو الدافع الوحيد لزيد على عدم التخلف . مضى خلف الفراش وابتلعتهما الردهة المعتمة .

عندما عاد كان السمرقد انقضى . انصرفت رجـــاء وبقية

الزملاء • هذا شأن المدير معه ، عندما يكاد يصل الى أن يضع يده على بداية جادة • وغدا ؟ لكل يوم كلام جديد • ومن يدرى ماذا يدخره الغد من أحاديث سخيفة كالمعتاد ؟

كان اليوم شيئا آخر • ولكن فجأة اهتز عصب فى صدر زيد هل حدث اليوم حقا ان قالت رجاء هذا الكلام ؟ وهل يحدث أن يقول أحد هذا الكلام على الاطلاق ؟ وفى غرفة المكتب هذه . بجدرانها الكئيبة التى تساقط طلاؤها ؟ •• هل اجتمع اليـــوم هؤلاء•• وذكرت: الكرامة •• والاجداد •• والتقدم•• والاحفاد الذين يضربون الآباء ؟

نزل زيد درجات المبنى ذى الطوابق الســـتة والثلاثين • سيسرع الى غرفته ويغلق النوافذ •• الجميع يفعلون ذلك • بالليل توصد البيوت أبوابها ، وتسدل الستائر ، وتطلق الكلاب فى الشوارع تنبح وتعض ، وتطارد اللصوص والقطط •

يوم أن قُتل عنتر

* أمام مائتين من آكلى الفول السودانى والملانة ، فى صباح مشمس جميل ، هاجم عنتر حارسه ، وأخذ يمزق جسده.

لم يحتمل البعض ، اصيبوا بالاغماء ، أما أولئك الـــذين ما عادوا يثقون بأن شيئا يمكن أن يحدث ، فقالوا « هذا فيـــلم من الموجة الجديدة » .

مضى بمخالبه يمزق لحمه .

دوت الصفارات ، وجرى الحراس فى الممرات . تعـــالت الصيحات والاخطارات وصوبت الاشارات نحـــو القفص الملطخ بالدماء .. نحـــو الضحية ..

أسرع رجال النجدة ، وهم يجيئون عادة متأخرين .. شهروا السلاح . أطلقوا الرصاص ، من خلال القضبان ، على الأســد

المفترس • خمدت مخالبه • بردت أنيابه • سقط بجـــوار حارســـه •

بعد تريث ، فتحت الاقفال • اقتحم ذوو البنادق والهروات القفص ، وانهالوا على جثة الوحش ضربا •

من الأقفاص المجاورة ، تعـــالى الزئير ، وأطلقت الطيور الجارحة ، فى ارجاء الحديقة ، صرخات لاهثة • ربما شمت الدماء وتتانة لحم الانســـان •• واحد من السادة السجانين مات •

انكب الضابط والبيطرى والطبيب على الحارس الذى يلفظ الانفاس • قال بابتسامة غافرة :

ــ انى لا ألومه •• هذا الحبيب •• انه تعذب •• انا نفسى كنت أضرب زوجتى وعيالى ، ساعة الألم •• لا تلوموه هو ••

وقال أحد المتفرجين خارج القفص معلقا :

ــ يضربون عنتر الحبيس ، وألف عنتر يصول ويجـــول سائبا •

وقال نائب المـــدير :

ــ سنسلخ جلده •

وقال المــدير :

ـ بل سنحنطه ونودعه المتحف .. فى الجناح الجديد الذى سيفتتحه السيد الوزير .. فنمنح علاوة أو مكافأة أو ربما ترقية.

ثم التفت الى كبير صرافى الحديقة ، وقال بلهجة حازمة :

ـ سيتضاعف عدد الزوار غدا .. بعد حادث هذا الأسد المفترس .. يمكنكم أن تزيدوا الطـوابع فى كل شــباك .. وحاذروا من المتسللين .

فى الممشى المؤدى الى بيت الزواحف ، قال أحد المتفرجين . وهو يمشى الهوينا ، ويقضم كعكة السميط :

ـ سنقرأ غدا أخبار ســاخنة .

أجابه متفرج آخر ممن يؤمنون بأن لا شىء يحرك الميــاه فى البرك الراكدة :

ـ الصحفيون بشر .

ـ ولهذا سيثيرهم هذا الحدث ، ويبيعون من صحفهم آلاف النســخ .

نظر اليه المتسكع الآخر ، وقد عقد أصابعه وراء ظهره :

ـ هذا اذا لم تقدم الادارة ريش الطاووس وبيض النعام هــــدايا ..

تلفت حـــوله ، وأردف قائلا :

ـ هــذه الأشياء تبهر ، كما تعـــــرف ، وهى قادرة على الاســـكات غالبا .

قال الأول ، غير مقتنـــع :

ـ ماذا باستطاعتهم أن يقولوا ، والحادث على كـــل لسان؟

ركل الآخر حصاه صادفتها قدمه فى الممشى . وقال :

ـ الأمر سهل ، والمادة تذلل الصعاب .

ـ أراهنك لن يستطيعوا أن يقولوا شيئا .. الأسد افترس حارســـه .

هز الآخر رأسه ، قائلا :

ـ سيقولون ـ مثلا ـ الحارس مات بالصدمة العصبية عندما فوجىء بالأسد يواجهه والقفص مغلق عليهما .

ـ ماذا تقول ؟! يحملون المسئولية للحارس ؟!

ـ وكاملة .. هذا اذا لم يقولوا ان الحارس هو الذى بدأ الأسد بالعدوان .. وأن هذا الأسد المسكين كان مصابا بالشلل منـــــذ أمد .

قادهما تسكعهما فىالممرات المشمسة الى مبنى لا تحوطه

القضبان ، بل تنفتح الشبابيك فى حوائطه التى كستها النبــاتات المتسلقة ذات الزهر البنفسجى • كان ثمة شباك عال عن يمينهما مفتوحا على مصراعيه • لم يريا من بالداخل ، ولكن الداخــل سكب الى آذانهما صوتا غليظا يقول :

ــ الحادث يرجع الى أحد احتمالين •• الأول ، ان يــكون الحارس قد دخل دون أن يغلق الباب الفاصـــــل بين القفصــين الأمامى والخلفى ، فاتاح الفرصة للاسد أن يهجم عليه ••والثانى أن يكون الحارس قد طرد الأسد الى القفص الأمامى المعـــــد للعرض ، وقبل أن يكون قد استدار ليغلق الباب عاد الأســد الى مكان المبيت دون أن يشعر الحارس الغافل ، ففوجىء بوجود الأسد معه فى الحجرة الداخلية لا يفصل بينهما أكثر من متــر واحد • وما ان وجد الحارس نفسه وجها لوجه أمام الأسد بين قضبان محكمة الاغلاق صرخ صرخة واحدة اثارت الأسد • أجل. يجب أن تبرزوا هذا على صفحاتكم • • صرخ صرخة واحــدة أثارت الأسد فدفعه ، فوقع على الأرض ، وتركه •

تعالى صوت رفيع متكسر :

ــ تصوير بارع هذا يا سيادة المدير •• تصوير بارع •• لافض فوك ، يا سيدى •

نظر المتفرجان الىبعضهما بعضا صامتين •

مضى الصوت المتسلط :

ـ ابرزوا هذه الواقعـــة ، يا حضرات •• ابرزوها على صفحاتكم جيـــدا ••

عاد الصوت المتكسر الرفيع :

ـ حبذا لو أخذتم صورة لسيادة المدير ، وهو يضع قدمه على رأس الأسد • سيكون لهذا وقع حسن فى قلوب القراء •• وسيأتون ليتفرجوا على سيادة المدير بدلا من الأسد القتيل •

وفد صوت المدير منتهزا :

ـ دعك من هذه التعليقات ، يا ســـيادة الوكيل • • ولننتبه كليـــة الى ضيوفنا الصـــحفيين •• نحن على استعداد لتزويدهم بكل المعلومات التى تلزمهم فى مثل هذه المناسبة •• واجبنا يحتم علينا ذلك •• وعليهم أيضا •• سيحتاجون الى تقرير مفتش الصحة والطبيب الشرعى •• خـــذ قلما يا سيادة الوكيل ، واكتب ما سأمليه عليك • وليوقع مفتش الصحة عـــلى ما ســأقول •

ـ لحظة واحدة ، يا سيادة المدير •• سأكتب هذا بالقلم الكوبيـــا ••

ـ اكتب ••

قبع المتفرجان فى مكانهما وارهفا السمع :

ـ سيجرى التقرير بالآتى •• حدثت الوفاة نتيجة صدمة عصبية وهبوط فى القلب اصابا الحارس حينما وجد نفسه وجها لوجه أمام الأسد والباب مغلق عليهما ••

ـ وعن الآثار التى تركها الأسد على جسم الحارس ماذا تريد أن نقول ، يا سيدى المدير ؟

ـ لا تقاطعنى ، كل شىء أعددت له عدته ••

ـ أعرف •• أعرف يا سيدى •• لكنه مجرد خاطر عارض

ـ أين وقفنا ؟ آه ، تذكرت •• فلنكتب •• هذا ما أكدته أيضا الآثار التى تركها الأسد على جسم الحارس •• لم يعثر الأطباء الا على خدوش حول الأذن اليمنى ••

ـ ولماذا اليمنى ، يا سيدى ؟

ـ لتكن اليسرى ، اذن •• وجرح لم ينزف منه نقطة دم•

ـ عظيم •• ولا نقطة دم واحدة ! أقسم على ذلك !

ـ أوراق رسمية هذه ولا تحتاج الى قسم على صحتها •

ـ هذا صحيح •• ولا نقطة دم واحدة ، اذن •• لا نقطة دم ، وكفى !

ـ وجسم الحارس متكامل لم يحاول الأسد أن يقترب منه بعد وقوعه على الأرض ..

ـ أجل ، حتى ملابسه كاملة .

ـ الأقفاص والأبواب مصممة بطريقة سليمة مائة فى المائة ويقف الحيوان أمامها عاجزا . يجب أن تؤكدوا لقرائكم انه لولا الاهمال لما حدث شيء .. ويمكنكم أن تضيفوا أن الأسد كان كسيحا .. مسكين .. منذ سنتين .. وكنا سنمنحه عكازا يتوكأ عليه فى بداية السنة المالية .. يجب أن تستثيروا عطف الجمهور على الأسد .

تبادل المتفرجان نظرة مذعورة ، ومضيا مبتعدين عن مبنى الادارة ، خشية ان يراهما أحد ، وهما يسترقان السمع ويتلصصان فيأمر المدير بالقائهما فى قفص النمور أو بركة التمساح .. او ربما أحكم وثاقهما وطرحهما أرضا تحت أقدام الفيل .

قال ذلك الذى يعرف ان لا شيء يتغير فى هذا الوجود :

ـ ستكتب الجرائد غدا ان الحادث وقع بعيدا عن الأنظار .. ولم يستطع أحد من الجمهور أن يلاحظ شيئا على الاطلاق .. على الاطلاق !

ـ ولكننا رأينا الدماء بعيوننا هذه !

ــ ومن أنت ؟ ومن أنا ؟ لسنا ممن يعمل لهم حساب .

ــ وكل هؤلاء الذين رأوا الحادث معنا ؟

ــ كم مهمل .. ومن أصر على أنه رأى اتهم بأنه مختل العقل أو قصير النظر . أو ربما هو مثير للاشاعات المغرضة .. يريد الاساءة عمدا الى سمعة الحديقة التى مضى قرن من الزمان على انشائها .

أقبل بعض الأطفال من زوار الحديقة يجرون صائحين . فقد عثروا على رأس آدمى ملقى أسفل أحد كبارى بحيرات الحديقة . وقد تبين بعد انتشالها أنها لرجل فى نحو الأربعين من عمره ذى شارب كثيف .

تفرس المدير فى الرأس التى تقطر منها المياه والتصقت بها بعض الطحالب الخضراء . ثم قال :

ــ غير ممكن . لابد أن يكون مجهول قد حمل الرأس داخل حقيبة الى الحديقة ، وألقاها الى الماء فى غفلة من الجمهور والحراس بينما أخفى الجسد فى مكان آخر .

قال نائب المدير بصوت مضطرب :

ــ اذن ، أين الجسد ؟

ــ هذا هو السؤال ، حقا ! أين الجسد ؟!

فى آحد الممرات الجانبية تحت شجرة سنط قديمة شعثاء، وقف عاملان من عمال الحديقة بزيهما الرسمى المهلهل •• وقد لطخته الأوساخ قال الأول هامسا :

ــ نحن ثلاثمائة •• لا بد لنا من بدل خطر •• رأفة بعيالنا •• نحن معرضون للافتراس فى كل وقت •• وعلى الأخص أثناء تقديم وجبات الطعام •• أتعرف كم طول ذراع الأسد ؟ سبعون سنتيمترا •• بينما يبلغ طول الآنية التى يقدم بها الطعام ثلاثون سنتيمترا فقط •• على الحارس أن يجد الفرصة ويتحينها لتقديم آنية الماء والطعام ، قبل أن تصل اليه يد الأسد •

ــ الاعتمادات لا تسمح •• هكذا يقولون دائما كلما رفعنا أصواتنا بالشكوى وطالبنا بالبدل •

ــ أتذكر الحادث الذى وقع عند بركة التمساح ، وانتهى بقطع ذراع زميلنا قمر ؟

ــ وأذكر أيضا كيف استطاع فرس النهر •• هذا المخلوق البليد الذى لا يشبع •• ان يقسم العامل المكلف باطعامه الى نصفين •

ــ اننا معرضون دائما للهجوم •• زميلنا حارس الفيل ، انحنى يربط ساق الفيلة الشابة « رفيعة » بالجنزير الحديدى كما يفعل كل ليلة •• اجراءات معتادة ، كما تقضى التعليمات ••

واذا بها تستدير ، وتدفعه أمامها حتى التصق ظهره بجوار الحظيرة .. مضـت تدفعه بجبينها اللعين .. وتضغط عليه وتضغط ، بعصبية غير مألوفة .. كما لو كانت قد أظلمت الدنيا فى وجهها .. قال الطبيب البيطرى « مجرد مداعبة .. هزار » .

ـ الحق ان الدنيا أظلمت فى وجه حارسها .

ـ مضت تضغط عليه فى الحائط بقوة عظيمة حتى انهدم الحائط من ورائه .. وألقت به الدفعة عشرة أمتـار خارجا ، ومات .

ـ لا تأمين ولا ضمانات .. نحن عزل ازاء الوحوش فى الحديقة .. وفى خارجها أيضـا .. نحن الحراس المخلصون معرضون للخطر .

كانت صرخات القرود تدل على أن الطعام المقرر صرفه لها لم يصل الى أقفاصها بعد ، رغم ان ميعاد الوجبات قد فات ، وانها فى انتظار حسنة من أحد المتفرجين ، تسكت بها الجوع فى أحشائها .

ويبدو أن الحديقـة قد أصبحت مسرحا للحوادث التى تتصل بالانسان أكثر من عرضها للطير والحيوان والزواحف . فها هو من يجرى ويصيح :

ـ لقيط ، ياسيادة المدير •• لقيط عمره يومين .. . .
أمام مبنى الصيدلية •

المشاكل تتزايد وتضيق الخناق على المدير • لكنه فى حزم يأمر :

ـ الى الشرطة سلموه •• واستكملوا البحث بين الأشجار والحشائش •• لا بد من تطهير •• نقبوا عن الجسم بين الأغصان وعند الجذور •

دبت الحركة فى أرجاء الحديقة لحظة • ثم خبت •

قال الحارس الشاكى من بطش الحيوان لزميله :

ـ سنجمع اعانة للزوجة والأولاد •

خفض الآخر صوته ، وسأل :

ـ والمكافأة المستحقة ؟

ـ تحتاج الى تأشيرة المدير باحالة الأوراق • وأنت تعرف كم تستغرق هذه التأشيرة على الأوراق •

ـ ياله من لعين •• ستلبس زوجته غدا معطفا من جلد الأسد •• مهما كانت الأحوال •

ـ أتعرف ماذا أتمنى له ؟

يوما من الأيام .. ان عاجلا أو آجـلا .. عندما يقف أمام القضبان فى جولة تفتيشية .. أن تلتف ذراعا الأسد خارج القضبان لتمسـك بكتفيه وتمزقهما أربا أربا .. ولتفشـل كل الجهود لانقاذه من براثنه .

ـ متى سيكون الجناز ؟

ـ غدا .. سيخرج من هنا .. بعد أن تتم اجراءات الاعداد للدفن .

ـ هل تعتقد انه سيصرح بدفنه ؟

ـ وماذا يريدون من مجرد جثة ؟

ـ يخشون الانفضاح . ألم تسمع قول المدير .. « وجد الجسم كاملا ؟ »

ـ وماذا فى هذا ؟

ـ أنت حديث العهد بالحديقة ، يا صاحبى، سيحنطونه .. ويودعونه أحد أركان المتحف .. ويكتبون لافتة صغيرة عليه : هذا نموذج للعامل الذى يثير الشغب .. نموذج للعامل الذى يسبب الازعاج والاقلاق .. للرؤساء .. باهماله .. باهماله لقى حتفه .. والى جواره سيضعون الأسد .

ـ ألم تسـمع انه سيسلخ من أجل معطف حـرم جناب المدير ؟

ـ لكل شيء استعمالاته .. الجلد للمعطف ، والهيكل العظمى للمتحف .. أفهمت ؟

ـ وماذا يجدينى أن أفهم أو لا أفهم ؟!

ـ كن واقعيا فى نظرتك للأمور . أللا معقول يا صاحبى أصبح معقولا . ان تكون لا معقولا هو الواقعية الجديدة فى هذه الحديقة العتيقة ..

انكب فى ذلك الوقت أفراد الضفادع البشرية على عملية مسح شامل فى البرك والمجارى المائية الموجودة فى الحديقة بحثا عن جثة الرجل الذى عثر الأولاد على رأسه بجوار بحيرة البط .

وفجأة دوت الصفارات فى أرجاء الحديقة ، وانتشر رجال شرطة الحديقة يأمرون الناس بالخروج والانصراف .

سأل أحد الجالسين على العشب الأخضر باسطا فى منديله بيضا مقشرا وحزمة كرات :

ـ لكن ميعاد الانصراف لم يحن !

هذا السائل تلقى لسعة من خيزرانة العسكرى البدين على كتفه .. وعندما هب واقفا تلقى لسعة أخرى على عجزه .. أما الضربة الثالثة فلم تطله ، اذ كان قد اقتنع بأن ميعاد الانصراف قد حان ، فولى الأدبار نحو باب الخروج .

همس أحد الزائرين فى أذن زوجته التى تشبه الشمبانزى حتى لتكاد تعتقد ان الحادثة التى وقعت منذ خمسة وثلاثين عاما، عندما تمكن أحد القرود من الافلات من قفصه قد تكررت فى زواج هذا الزائر الذى تبدو السعادة على وجهه الصبوح — همس الزائر فى أذن زوجته وهما يلمان أولادهما الستة الصغار .

— لا بد أن حدثا جللا قد وقع أو ربما زائرا مهما قد وفد .. هذه الحديقة لا تقفل أبوابها الا قبل الغروب بساعة .. والشمس كما ترين لا زالت تتوسط السماء .

تأكد رجال الشرطة من خلو الممرات من الزائرين الذين لا يكفون عن معاكسة الحيوانات .

وعند الباب دخل صف من حملة المباخر ، وقد ارتدوا الزى التقليدى المجدد حتى يتلاءم مع مقتضيات العصر . ويتصدرهم أحد قدامى الموظفين بالدرجة الثامنة الشخصية يقول بصوت مهيب :

— وسعوا الطريق .. افسحوا الممرات .. الوزير الكريم آت يوزع الخيرات .. لأسرة الفقيد خمسة وعشرون جنيها بصفة عاجلة .. وفى كل شهر بعد ذلك خمسة جنيهات ..

انفرجت أسارير الحراس لهذا الخبر .. واطمأنوا على مستقبلهم من هجمات الحيوان .. لكن كما هو الحال دائما لا يخلو الأمر من شكاك يبث الحيرة فى القلوب . قال :

ـ هذه التصريحات لكسب الوقت والاسكات •• وهل الكلام بحساب ؟ هل تشترى رغيفا بعشرة كلمات •• ولا حتى بمئات ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لا بد من مثل هذه التصريحات لامتصاص الغضب •• والانطلاق الى المستقبل بأمان •• عندما يشيع فى الجو أن الشئون القانونية آتية لاجراء التحقيقات •• فمن حسن الادارة اطلاق مثل هذه التصريحات ومن أمثالها أيضا توزيع الأرباح •

ـ أهى من قبيل النكات اذن ؟

دوى صوت عربة الوزير عند الباب يسبقه رنين الدراجات وصفير الموتوسيكلات •• وعلت الجلبة على كل الهمهمات والتساؤلات •

كلمة هامة وأخيرة

* سيداتي ، سادتي ، ليست هذه أول محاضرة تحضرونها، وليس هذا أول كلام تسمعونه • كثيرون قبلي قالوا لكم كلاما صفقتم له ، وهللتم طالبين المزيد • لماذا ؟ لأنه كلام من النوع الذي يروق لكم ويخدركم • يجعلكم تنظرون الى بعضكم بعضا وتقولون : ياسلام ، نحن حقا أذكياء • نحن حقا نعرف أشياء كثيرة • نحن مركز الكون حقا ، وكل شيء في الدنيا لنا •• واني وان كنت واحدا من الذين قالوا لكم كلاما من هذا القبيل ، لكن اليوم اصغوا الى جيدا • من له أذنان فليسمع ، ومن له قلب فليسمع ، ومن ليس له اذنان أو قلب فليجتهد على أي حال أن يسمع •• انى لم آت لأسليكم • سوف أقول لكم كلاما كان يجب أن تسمعوه من زمن بعيد • نحن اليوم في عصر الصواريخ، ولهذا يجب أن تتكلم كلاما علميا • كل كلام مدعم بدليل • وها هي الكتب ، والقواميس ، والمراجع ، كلها ملآنة بالبراهين •

كلامي الليلة سوف يغير حياتكم • سوف يضع نهاية لكل شيء • لا بد أن تدفن البذرة كي تطلع الشجرة • وأنا الليلة سأكلمكم عن شيء أبعد من الحياة والموت ، عن شيء أبعد من الخير والشر • سأكلمكم عن « السر » عن « السر الأكبر » سآخذكم في جولة الى حديقة الصخور • ومن تمزق جلده أو أصيب بجراح فليتحمل • أن تكون بطلا وتقيا هو منتهى الكمال الانساني • على كل حال لا تخافوا • أتفهمون ؟

تعالوا نتكلم في هدوء ، بغير انفعال ولا زعيق ، مثل الأصحاب ، مثل الأحباب ، مثل الأزواج في أول حياتهم الزوجية •• ما الذي جاء بكم هنا ؟ كيف جئتم هنا ؟ لماذا لم تجلسوا على المقهى ؟ لماذا لم تجلسوا أمام التليفزيون ؟ لماذا لم تتمتعوا بالدفء في فراشكم الليلة ؟ جئتم تنظرون الى ، وأنظر اليكم ؟ تحملقون وأحملق فيكم ؟ لكن أنا لا أراكم • لم أحضر من أجلكم • جئت من أجل أداء واجب • أنا رجل محاضرات •• طوال عمري ألقي محاضرات ، على أناس لا يفهمونني •• وكيف يفهمونني ؟ لكن الكلمة شرف ، الكلمة واجب • وأنا أؤدي واجبي • سعيد أنا أم غير سعيد ، هذا أمر آخر • ما من أحد منا سعيد وراض • عندما تحس انك زائد عن الحاجة •• ملقى بك على الكومة ، ليس لك مكان على الحصير ، ولا للقمتك

موضع فى الطبق ، ولا لرجلك محل على سلم الأتوبيس ..
ماذا تكون ؟

هذه هى الحقيقة ، تتأكد لى وأنا أنظر فى عيونكم . كان الأفضل الا تولدوا ، لكن البطن التى تسع واحدا تسع ستة وسبعة وأكثر . والنتيجة ترونها : الزحمة ! .. ومع الزحمة يضيع المعنى . ومع ذلك كلكم جئتم، . ما من أحد يسمع . ومن يسمع يتظاهر بأنه لا يسمع . هذه هى المشكلة ، أيها السادة . هذه هى المشكلة . اسمعونى ، من فضلكم . افهمونى وصدقونى، من فضلكم ! غير معقول ، ان تكونوا منصتين لى . طالما ان كلا منكم جالس على كرسى . ما الذى سيجعلكم تصدقوننى ؟ لو كنتم على الباب تريدون أن تدخلوا ولا تقدرون لأظهرتم استعدادا للاستماع ، ولقلتم من الخارج « نحن نصدقك ، يا أستاذ . نريد أن نفهم . نود أن نصدقك » لكن مادمتم جالسين على كراسيكم تقزقزون اللب وتأكلون الفول السودانى، فلا فائدة . ولماذا تريدون أن تفهموا ؟

باختصار ، أيها السادة . انى أسمع كلا منكم يقول فى سريرته « يافرحتى ، لا زلت سليما معافى . لا زلت أسبح فى بركة الطين ، فى بركتى، . بالنهار ، يحجل الغراب فى الأرض الخراب ، أمامى ، يافرحتى ، لا زلت أحيا فى بركتى . وبالليل يغنى الضفدع للقمر وراء الغمام ، وأنا فى بركتى لا زلت أغوص .

أغوص حتى رقبتى يافرحتى ! » انى أسمعكم كما أسمع نفسى.
ولا داعى للانكار .. أجل ، أجل ، فالليل أسود والنور عذاب
يوجع العيون . حذار أن يوقد أحدكم شمعة ، فالقبر كله ظلام،
ولو ظهر طيف منير ، سيقولون انه عفريت . سيقولون عنه اتهام،
وهل يحتمل أحدكم مسمارا يدق فى كفه ، أو حربة تغرس فى
جنبه ؟ هل يقوى أحدكم أن يشم لحمه محترقا ؟

لكن استيقظوا ، !أفيقوا . الألم شىء فظيع ، ياإخوانى ،
هذا صحيح ، لكن نار جهنم متقدة . استيقظوا ، استيقظوا ،
سرقتكم السكين ، دققوا النظر من حولكم ، انظروا ماهو مقبل
عليكم من ورائكم ، من أمامكم ، من داخلكم . انهضـــوا .
لاتحدقوا بعيونكم الفارغة ، بعيونكم السرحانه . ماذا تنتظرون
منى ؟ ليس لدى ماأقوله ، ليس عندى ما أعطيه لكم . احمدك
يارب . اخفيت كل شىء عن الحكمـاء والفهمـاء ، واعلنته
للعبد لله .

مجيئكم الليلة كان غلطة كبرى ، لسبب بسيط . ان الغلط
مكتوب عليكم . لماذا ؟ اانافسى لا اعرف ، لكن دعونا نفكر
معا . وجودكم تافه مبتذل ، خـال من القلق ، رغم انكم على
الدوام مهمومون ومنشغلون . طائشون ، وكل حقيقة مشوشة
فى ادمغتكم . كل واحد منكم موظف او عامل او تاجر ، ولكن
ليس فيكم من هو انسان متميز . اتسمعون ؟ تحبون الثرثرة ،

وتدسون انوفكم في كل شيء • تريدون ان تذوقوا كل أكله ، وان تدخنوا كل سيجارة ، وان تشاهدوا كل رواية ، وأن تضعوا اصابعكم على كل جرح •• تسالى ، تسالى • حـد واخد منها حاجة ؟ ياسلام ، كل شيء في الدنيا طاهر وفي الوقت ذاته غارق في الدنس والخطيئة ! اتسمعون ؟ حياتكم الخاوية ، تملأونها فحسب • تقلدون فلانا وفلانة •• ماذا تلبس رندة بنت الحاجة زبيدة ؟ آخر موضة • انظروا كيف عقصت شعرها ؟ كيف زججت حواجبها ، وخضبت اظافرها بالطلاء ؟ وانت ، يا أستاذ ، تقول : انظروا كيف نال مرزوق ترقية تلو ترقية : وصـعد السلم قفزا وعدوا • يجب ان افعل مثله • سأتزوج ابنة جودة بك ، واصير باشمديرا • اتصدى للتوافه • لماذا قد وصل هو وأصبح شهبندرا؟ كل منكم لايريد ان يكون نفسه فحسب ، بل يريد وفي غمضة عين ان يغدو نجما، اما الزهد والكرامة والتفكير الهادىء الحلال فهـذه كلها امور اصـبحت امور صـغار • انى اعرف • انتم لا تسمعوننى • كلامى لا يعجبكم •

سيداتى ، سادتى ، لسـت مغنيا مشـهورا ولا مقـدمة للبرامج في التليفزيون ، كونوا شـجعانا ولو لمرة ، وحزارى ان تصفقوا • انتبهوا لاتتراجعوا • ليس بلازم ان ينفعكم كلامى ويصلحكم • مامن شيء يفيد وينفع • كل واحد يحمل جثة ويمشى الى الوراء • يتقدم ، ولكن ليس الى الامام • لاتسبحوا ضـد

التيار • انى أعرف سواعدكم ، كم هى ضـعيفة ومتعبة • انى اعرف كل شيء •

ها أنتم تنظرون الى ساعاتكم ، وتسـألون كم بقى من الوقت • انى حكيم مثل الثعابين • كلا ، لست منكم ، وان لم اكن افضل منكم • ومن اجل هذا كان قلبى معكم • اعرف ليس مكانكم هنا ، وماجئتم لتسـمعوا • بل جئتم لتجلسـوا على كراسي ، وتمنعوا غيركم من شغلها ، وربما كانوا احق منكم • انتم تريدون ان تكونوا موجـودين فحسب ، ان تكونوا فى الصورة فحسب • ومن يدرى ، فقد تتكلم الجرائد عنكم غدا ، وقد تكون الكاميرات مصوبة عدساتها السحرية عليكم الآن ؟ ما من احد مكانه هنا • كل معزول عن الآخر • الى جواره وليس الى جواره ، يسمعه ولا يسمعه ، حتى انا ليس لى شأن بكم • كان عندى شيء كبير جئت اقوله لكم • منذ اللحظة التى نظرت فيها الى عيونكم فهمت انكم لا تريدون ان تسمعوا • غير قادرين انتم أن تسمعوا الا أصواتكم ، مثل الذى يغنى فى الحمام • غير قادرين أنتم أن تروا الا أنفسكم • تريدون أن تلعبوا • وماذا تلعبون ؟ لعبة المراية ، لعبة الاستغماية ، هذه هى اللعبة ، لعبة كل يـوم •

ثمة شيء يطاردنى • يجرى ورائى ، يضيق على الحصار ، يكتم أنفاسى أيها الناس ، ابعدوه عنى ، سوف يخنقنى • منذ أن

ماتت زوجتى ، وأنا احيا وحدى • لم أذق من بعدها لقمة طرية اما ابنتى فهى ـ بينى وبينكم ـ من الخنافس •• اطالت شعرها الى ركبتيها ، وطوال النهار ترتدى بنطلونا ، وتقرأ كيركجور وافلاطون وتسمع اسطوانات • ولاتغسل وجهها • ادخل فأجدها شاردة الذهن ، دموعها منهمرة على خديها كما لو كانت قد قشرت جوالا من البصل • تقول لى «مامن شىء يجعلنى أبكى ، يابابا ، قدر الفلسفة» انها بالحق فائرة وفى سن الزواج • الا تعرفون احدا يريد ان يطلع من دينه ، اقصد يكمل نصف دينه ؟ جزاكم الله خير جزاء • عنوانى فى دليل التليفون • ليس تحت حرف الدال • الناس تنادينى « يا دكتور » ، هذا صحيح ، لكننى لست دكتورا • ومن يجد العريس ، أى عريس له عندى الحلاوة، أجل الحلاوة ، سموها كما تشاءون لكن الحلاوة هذه هى التى تسير اليوم كل الأشغال • ذلك اننى وان كنت رجل محاضرات، وطوال النهار ألقى المحاضرات ، الا أننى عملى ، أيها السادة ، عملى جدا • اعرف كيف انجز الأشغال ، اتسمعون ؟

ولنرجع لموضوعنا • قبل ان أجىء اليكم احسست كأننى على باب كشف جديد ، كأن النور الذى أرى به الدنيا وكل الناس قد تغير • لاأخفى عليكم ، قلقت • لكن ـ صدقونى ـ لم أجد بى الرغبة فى الهرب • لأول مرة وجدت كل شىء يمكن ان يكون له معنى • لكن كل شىء مالبث ان تبخر عندما رأيت

عيونكم الزجاجية ، عندما رأيت وجوهكم الملونة التى تضعونها على وجوهكم . لابأس . لست ناقمـا عليكم . اننا لم نكن أحرارا عندما ولدنا . هل كان بامكان احد منكم ان يكون وردة أو غزالا ؟ ومن اللحظة التى نوجد فيها لا مفر لنا من القناع والقفاز والحوائط نحتمى بها . ذات مرة قشرت برتقالة ، وجدت بداخلها دودة . صرخ ضميرى وقال لى «أترى ؟ نحن وجـود للفناء» قلت لنفسى «يابروفسور نحن نستمر فى الحياة سواء فكرنا أو لم نفكر ، سواء أطلنا التفكير أو أبطالناه ، والدودة فى قلب الانسان ، فى أعمق الاعمـاق فلاتبين» انى أتكلم بالطبع عن الناس الصادقين مع أنفسهم . أغمضت عينى ، قفز امامى فى الظلمة وجهها النحيل .. الحب من النظرة الأولى .. الشفتان الغليظتان والاذنان المفلطحتان . رحم الله أمى ، كانت تقول اذا أردت الزواج تزوج امرأة مثل الحائط كى تتحمل خـدمتك . الصوت مثل رنين العود ، اليدان النحيفتان المنتهيتان بأصـابع مثل المخالب .وأخيرا السيقان .. آه ، نسيت ، انا أعشق صوابع القدمين أيضا . هذه المرأة حبى الثانى والاخير . مومياء ، لكن لو كنتم قد رأيتم ابنتى ، وهى ترتدى البنطلون ، ستدركون ان مومياء الزمن الغابر أجمل بكثير من بنات اليوم ..

بعد ان ابتدأت أيها السادة ، وقد قررت أن أفتح صفحة جديدة تكون الصفحة الأخيرة فى كتاب الأكاذيب ، أصبح أملى

الوحيد وأنا أكلمكم الليلة ألا تسمعوني ، حتى لاتعرفوا أنفسكم على حقيقتها ، فتقولوا عني «محاضر فاشل» ، وأنا لا أريد أن يقول عني أحد هذا ، فأنا طوال عمري أقول محاضرات ، وأتعيش من المحاضرات ، ولايقطع أحد عيشه بيده . انى أشكركم على حسن استقبالكم ، وعدم فهمكم وهو أقصى مايتمناه محاضر نزيه مخلص لمهنته ومستمعيه . تصوروا ماذا كان يحدث لو كنتم وعيتم كلامى فى أوله ؟ لو كنتم فتحتم قلوبكم مثلما تحدقون فى هكذا ؟ آه ، كانت الدنيا تتغير ، والحياة تدب فيكم من جديد . لكن قانون التقادم الطويل أقوى من كل قانون ، وهو يسيطر عليكم ، الرحمة على امرىء قال «دع الأمور تجرى فى أعنتها . والفتنة نائمة لعنة الله على من أيقظها » عيونكم، نظراتكم الشاردة ، تريد هذا . وشفاهكم المزمومة تستجدى وتقول «اتركنا فى حالنا . اتركنا فى سباتنا . لاتوقظ ضمائرنا من مراقدها . فما قد مات مات . وما هيل عليه التراب لاتقربه . لاتنبشه نبش الغراب لكومة من الروث» لقد جئت لألقى سيفا لا سلاما ، جئت لانقض ، لأفرق الأبن عن أبيه ، والبنت عن أمها ، والكنة عن حماتها . هكذا جئت فى أول الليل ، فارسا شجاعا تداعبه أحلام نبيلة لانقاذ البشرية . لكن جلستكم المسترخية ، وجوهكم المطمئنة ، أنفاسكم الرتيبة ، قفازاتكم المصقولة ، على الأخص قفازاتكم هذه ــ كل هذا جعلنى أغير

ماكنت أريد أن أقوله لكم • ربما ، ليس شفقة بكم ، بل كى أوفر على نفسى وجع الدماغ • ان قلة أولئـــك الذين يتمنون الموت يثبت ان الحياة ليست سيئة الى هذا الحد • وانى أريـــد أن أعيش مثلكم ، كى ألقى المحــاضرات ، محــاضرات كثيرة ، وتصفق لى الناس ، وتقول «هائل ياأستاذ هائل !» فما أشهى النجاح السريع لمن ذاق طعمه ، ومن دوى التصفيق له مرة صمت أذناه فلا يعود يسمع غير صداه •

ختاما ، أنا أشكركم ، فلو كنتم قد صـــحوتم على كلامى الأول ، كانت ستحدث أمور كثيرة ، مضاعفات خطيرة ، تبينت انى لست أهلا لها ، ولا أنتم ايضا ، جاليلو نفســه تخـلى عن الحقيقة بكل بساطة عندما هددت حياته • وأوصيكم ألا تنسوا حكاية العريس ، أى عريس لبنتى ، ضعوه فى بالكم ، وأنا غير ناس للحلاوة ، وعلى استعداد ان ادفع مهرا كى أفرغ لخطيبتى الصغيرة • بارك الله فى أولادكم وذريتكم الصالحة • لا حرمنا الله من أفضالكم ، واسمحوا لى أن أقــول لكم الى اللقاء فى محــاضرة قادمة ، والجايات كتير • ولا مفر من ان تجيئوا كى أحاضركم • لا جدوى • سنتقابل فى محــاضرات كثيرة • فلابد أن تتكلم ونتكلم كى لانسمع أنفسنا ، أين المفر لكم منى ؟ كل شعرة فى رؤوسكم معدودة ومحسوبة ، ومقدر على الاحياء أن يتلاقوا •• وهذه الدنيا الصغيرة العريضة ملمومة ولا آخر لها ، طالما ان فيها ممن هم مثلى ، وممن هم مثلكم كثيرين •

كاتب التقارير

* في الحديقة الجرداء ، التي علا الشحوب زرعها بالميدان الكبير ، تحت سماء زرقاء داكنة تسبح فيها غربان قاتمة السواد على ارتفاعات شاهقة ، جلست العرافة البدينة ذات الشفتين الغليظتين والذراعين الأبانوسيتين ، تحدق في قطع الودع الأبيض الملقى على الأرض في اتجاهات مختلفة . ولم تقل شيئا .. طال صمتها . رفعت بصرها الى الغربان العالية . وعادت تلقى الودع على الأرض فتناثر في اتجاهات مختلفة . طرفت عيناها ، والتزمت الصمت ، لكنه كان أبلغ من كل كلام يقال .

الا ان زيدا الذى كان يتلهف الى سماع كلمة تطمئنه . الح في السؤال . أشار الى الودعة النافرة في أقصى اليمين .

أخذ صدر العرافة العارى يتهدج كما لو كانت ثمة يد خفية اطبقت على عنقها . جحظت عيناها ، وتطاير منهما الشرر . صوبت

نظرات نارية الى عينى زيد الذى لم ينقطع عن الاستفسار • ثم صرخت فى وجهه بكلمة •

دوى صوتها فى كل الأرجاء • وارتجت الأرض • وشقت اسقف المنازل ، وتماوجت زرقة السماء • أما الغربان الهائمة فى الفضاء الفسيح البعيد ، فلم يبد عليها اكتراث •

جمعت العرافة البدينة ودعاتها على عجل ، والقت بها فى السلة ورفعتها على رأسها واطلقت لساقيها العنان • هتف زيد منزعجا فى أعقابها «والتقرير ؟ !» ابتعدت العرافة • غابت عن العيان •

أحس زيد بالوحشة تغزو صدره ، والرعدة تتسلل الى عظامه • انه لأمر جلل ، كارثة كبرى ، صاعقة ، انقلاب ، زلزال طوفان، حدث عظيم سيغير مجرى الحياة• ماذا؟ هل صارت الأرض ملكا مباحا لا سيد له ؟

اجتاز زيد الميدان الفسيح حيث اجتمعت فرق الرقص على وقع الدفوف والطبول والأكف • لم يقف عندها فقد كان ذهنه معتما منشغلا بالبحث عن معنى الكلمة التى قذفتها العرافة فى وجهه •

خرج الى شوارع السوق ، واستلفتته على واجهة أحد

المحلات لافتة كتب عليها «أشياء مستعملة» ثم العبارة المغرية «تسهيلات كبيرة» دخل ، وسأل صاحب المحل :

ــ طلبى ليس بالجديد . هل استطيع ان اسأل ؟ عندى تقرير أريد ان اكتبه .

غاب صاحب المحل فى أعماق محله المظلمة ، وعاد يحمل مع أحد عماله صندوقا أسود ثقيلا ، وقد رسمت عليه جمجمة وعظمتان متقاطعتان :

ــ طلبك ثقيل ، يا كاتب التقارير . يمكنك أن تنتحى بهذا الصندوق جانبا وتفتحه . سأضعه لك ، هناك ، خلف الستائر . تعال .

جلس زيد . شمر عن ساعديه ، وفتح الصندوق .

قفزواامامه . كان أولهم يقرأ صفحات من كتاب «الأحلام الميتة » والثانى يمسك بفرشاة ينظف بها أسنانه بعناية بالغة . أما الثالث فكان يغط فى نومه . لم يكن فى الزنزانة من يعرف ان العقوبة ستنفذ فيهم الليلة . ثلاث عشرة درجة سيرقونها الى حبل المشنقة .

لم يكن احد منهم يتصور انه سيدفع ثمن الجرائم التى ارتكبها . كانوا يؤمنون بأن للمال تأثير لايقاوم وكانوا قد ملأوا البنوك فى الخارج بالاموال التى نهبوها .

اصطف على الجانبين رجال المطافىء بزيهم الأحمر وخوذاتهم النحاسية اللامعة وأحذيتهم المرتفعة الى الركبتين ، والكشافة بسناديلهم الخضراء المعقودة حول الرقاب ، والمرشدات بقلنسواتهن الزرقاء المائلة على الجباه أما الفرقة الطبية بأرديتها البيضاء فقد وضع أعضاؤها اقنعتهم على الانوف خشية ان تتسرب الجراثيم الى الحلوق .

تدلت على الحوائط شعارات كثيرة بالخط الأسود العريض كما كانت الابواق المكبرة تذيع الاغانى الحماسية .

صعد الاول . كان شاحبا ولكنه متمالك نفسه . نظر الى الناس ثم الى المشنقة .

ومضى فى وجهه ما يقرب من أن يكون تعبيرا عن الخوف أو ربما عن عاطفة أخرى . لكن سرعان ماعاود السيطرة على نفسه واكتسى وجهه جموده السابق ، ونطق اسمه بكل جلاء .

قال له الجلاد ، وهو ينحنى له :

ــ لمدة طويلة .. كنت تقوم بعملى .. ها أنا الآن أخدمك . عين بعين .

فى بضع ثوان كان كل شىء قد انتهى .

صعد الثانى . كان هذا المسخ ذا عينين ماكرتين ويدين مثل

يدى سفاح محترف . حصل على تقارير متتالية بالكفاية الفائقة ونال ترقيات كثيرة ، ولكنه لم يكن ليقنع . كان يطمع فى ترقية كل يوم . وفى سبيلها لم يكن يتورع عن عمل أى شىء .

قال له الجلاد :

ـ كنت قاتلا موهوبا .

أراد أن يتنصل من جرائمه :

ـ فى الحقيقة لم أكن حرا .

قال الجلاد بحزم :

ـ لا تعاود الكذب ، وأنت على وشك أن تقابل ربك .

عاد يراوغ :

ـ كنت عبد المأمور . وانى لأقبل قدميك ان تعفو .

كان أنفه أحمر ومنتفخا مثل الطماطم . لكن الجلاد الذى لا تخونه ذاكرته ، وضع الغطاء الأسود على رأسه ، ولم يلن قلبه

بعد كل تنفيذ كان الحبل يغير ، يتنفس الحاضرون الصعداء ، ويدوى التصفيق .

في الساعة الواحدة والدقيقة السادسة والخمسين ، أدخل المستشار . كان يصدق على كل قرار ، ويصدر الأحكام مثلما ينطلق الرصاص من مدفع رشاش . لم يقض بالبراءة طوال عمله القضائي . قال « لا » مرة في أول اشتغاله ، ثم لوحوا له ، فقال « ولم لا ؟ » صار ينظر الى من في القفص بغيرية كان يسميها حيادا . وبموافقته السرية ، كان يرسل بالخصوم الى حيث كانوا يتلاشون وراء الأسوار .

ربط الجلاد يديه خلف ظهره . وسأله عن اسمه . صاح فيه :

ــ انت تعرفه .

كرر عليه الجلاد السؤال الروتيني . صاح فيه بمزيد من الاصرار :

ــ انت تعرفه جيدا .

كان فكاه متدلين مثل فكي كلب مسعور . أحكم الجلاد وثاق يديه . صعد أولى الدرجات ثم لم تقو ساقاه على حمله .

أسرعت نبضات زيد . الموت ! ياله من شيء سهل ومهول بسيط ومخيف في الوقت ذاته .

ألقى الحاضرون نظرة أخيرة على الجثث قبل نقلها الى توابيتها .

خيل الى زيد وهو ينظر الى وجه أحدهم انه انما يرى نفسه •

أحس بسرعة سيخا ساخنا ينزل فى ظهره ، وبقبضة حديدية مثل حبل المقصلة يضيق ويعتصر قلبه • فتح فمه حتى يستنشق بعض الهواء • تقلصت أصابعه على مسندى كرسيه الخشبى • ومرقت أمام عينيه تلك الكلمة التى كان يقرأها عند ختام كل عرض سينمائى « النهاية ! النهاية ! »

بذل فى أعماقه جهدا يائسا • صارع عدوا خفيا • استنشق بعض الهواء •• عاد قلبه الى دقاته •• هدأت نظراته التى كانت قد توحشت •

غمغم قائلا :

ــ حمدا لله • حمدا لست منهم •

تلفت حوله • لم يتنبه أحد من الموجودين الى المأساة التى دارت فى أعماقه وهلة •

تناول قدحا من الماء كان موضوعا على منضدة مجاورة • ورشف رشفات بطيئة ، كان ينظر الى كل حركة من حركاته بدهشة كما لو كان يرى نفسه لأول مرة ••

وقال يحدث نفسه :

ـ تصور ، لو لم يدخل بعض الهواء من خياشيمى لكنت الآن فى عداد الأموات ؟!

كل شىء كان سينتهى . كل شىء ؟!

تذكر عمله . سيطلبه المدير ليسأله السؤال التقليدى . « ماذا تم فى الملف ؟ »

مضت سنوات ولم يصل الى نتيجة لكن ماذا يفعل ؟ جرب العلم ، جرب السحر ، لم يبق الا الجنون . انهم يتعمدون اظهاره بمظهر العاجز عن الاتيان بالحلول . يعهدون اليه بأصعب الموضوعات على الدوام . وينتهزون لاحالتها فرصة انصراف بقية الزملاء . لكن اذا كسب قضية هذا الملف فسوف يمكنه أن يظفر دون أدنى شك بالترقية التى طال انتظاره لها .

كل ذلك بدا له الآن غير ذى أهمية . كما لو كانت أمور لا تعنيه .

عاد فجأة وتصور نفسه راقدا فى تابوت ويديه معقودتين على بطنه .

أجفل واقفا وهو يصيح « لا . لا » لكنه كان مجهدا . فما لبث ان ألقى بنفسه على مقعده . حرك أصابع قدميه داخل حذائه . ثم مد ذراعيه وشرع يحرك أصابع يديه وهو يتأملهما فى دهشة واعجاب .

تسللت قطة المحل الرمادية مقتربة منه . ثم تمسحت فى سرواله بلا أدنى صوت. سحب ساقيه ونظر الى عينيها الخضراوين وتنبه لأول مرة الى حركاتها اللينة الناعمة دون صوت . لم يكن يحب الحيوانات الأليفة من قبل ، أو على الأقل لم يكن يكترث بها .. لكنه اليوم نظر اليها نظرة لا تخلو من مودة . كانت الكائن الحى الأول الذى جاء يعيده الى الحياة . سر لأفكاره وانحنى يربت على رأسها . وظهرها بحنان ، وهى تستجيب اليه فى وداعة .

قال لها :

ـ يالها من شىء عظيم .. الحياة !

التفت اليه من حوله ، ونظروا اليه فى دهشة . لكنه لم يكترث . سر لأنه سمع صوته . وعاد يسرح بأفكاره :

ـ شىء عظيم حقا أن يكون بامكانك أن تحرك أصابعك ، أن تسمع صوتك ، أن تسير بينما ملايين من الناس قبلك أصبحوا لا يستطيعون حتى أن يحركوا أصبعهم الخنصر .. حتى نابليون أو كنجيز خان لا يستطيع أن يفعل ذلك مثلك . لعنة الله على كل ترقيات الدنيا . المهم هو الحياة ذاتها .

لوح للحاضرين بخنصره . وضحك لأفكاره .

كان قد بدأ ينشرح صدره . « لولا لطف الله لكنت معقود

الذراعين فى تابوتى بدورى » تذكر ان الطبيب قال له ذات مرة أن قلبه قد يتوقف عن ا لخفقان فى أى وقت بالليل أو بالنهار • قرر أنَ يقلع عن بعض عاداته ، حتى تصير حياته أكثر انتظاما ، فلا يلحق بأولئك الذين رآهم فى صندوق الدنيا •

عادت القطة الرمادية بعد أن قامت بجولة ، وساءها عدم اكتراث أولئك الذين فى التوابيت • عادت وتمسحت من جديد فى سروال زيد • انحنى وربت على رأسها • أين رأى هذه القطة من قبل ؟ انه يكاد يذكرها • قال لها :

ــ الحياة شىء جميل • هيه ؟ شىء رائع • أليس كذلك ؟

كان أجداده على حق • كانوا يخافون عضاتها ؛ فكانوا يعبدونها • نظر الى ساعته • هاله كيف تقدم به الوقت • هم ان ينهض ليلحق بمكتبه ، لكنه عاد وعدل • قال لنفسه • « ياشيخ ، لا داعى لذلك • اعتبر اليوم أجازة » •

أطل من الشباك • رأى الناس تروح وتغدو فى الميدان • تصعد الترام وتنزل كما لو لم يكن قد حدث شىء جلل فى هذا العالم أو كأنما لن يحدث شىء جلل فى هذا العالم •

فوق البيوت العالية كانت السماء بزرقتها تنادى ••

قال :

ــ يا له من ضوء جميل • كل شىء يلمع كما لو كان قد أحيط بالماس •

تسلل الضوء الى أعماقه •

أخرج قطعة من النقود • وتركها على المنضدة لصاحب الصندوق ومضى يجتاز الميدان المكتظ بالناس الى الكورنيش •• وظل يسير والنسمات تداعب جبينه الى السلسلة ومنها الى الشاطبى ، ثم سيدى بشر ، ثم المنتزه • وهو يقول :

اليوم أجازة •• اليوم عيد • لم العمل المتواصل ؟ لم ؟ لم ؟ بل لم العمل على الاطلاق ؟ لم ؟ سأستقيل • سأستقيل •• سأستقيل وأعتزل ! »

لكن اذا استقال •• اذا اعتزل •• فكيف يؤدى التزاماته اليومية ؟ وهل المعدة والامعاء تحتمل الاعتزال ؟ والجسم •• هذه العظام البالية •• كل ذلك هل يحتمل البرد فى الشتاء ؟ وصاحب البيت ، هل ينتظر ؟ واذا انتظر شهرا فهل ينتظر شهرين، أو ثلاثة ؟ •

مضى يسير على الكورنيش بخطى حثيثة ، وقد دس يديه فى جيبى البنطلون ، والهواء يعبث بشعره • يصفع خديه ببرودته • ويدخل من أنفه وفمه منعشا قويا ، يبدد الأوهام من عقله • ويشد قامته ويرفع رأسه عاليا ، كلما استنشق هواء البحر النقى ، ذاق على شفتيه طعم الملح فى الذرات المتطايرة من البحر الرحيب الذى يمتد فيلتقى بالسماء عند الأفق ، حيث تمضى فى طريقها المجهول سفن تبدو من بعيد كسلاحف سوداء •

ليلة الأحزان

* كان يوما متعبا من أيام الخدمة . لم يكن العمل ثمانى ساعات متواصلة هو الذى جعل الصول حسنى عبد الحق يشعر بالارهاق عندما القى بجسمه على الفراش فى غرفته . رقد على ظهره يستجمع شتاته ، وقد تسمرت فى بؤرة وجدانه الوقائع بكل وضوح . يعرف جيدا ان الاشارة كانت حمراء. بنفسه ضغط على المفتاح ، وأغلق المرور . كان الصباح لازال مبكرا ، ولم تكن حركة السيارات قد اشتدت بعد عند التقاطع الذى عين له منـــذ سنوات . لقد رأى السيارة البيضاء الأنيقة مقبلة من أول الشارع لم يكن هناك غيرها قادمة ، كما لم يكن ثمة سيارات أخرى فى الطريق المقابل ، ولكنه أضاء النور الأحمر ، واشار بيده للسيارة البيضاء الأنيقة من بعيـــد أن تتمهل وتقف ، وذلك حتى تعبر الشارع المرأة العجوز . عند مكان عبور المشاة نزلت من الرصيف محنية الظهر ومضت تذرع الشارع الى الرصيف المقابل بخطواتها

الوئيدة المثقلة بعبء السنين والاهمال والمرض ، لكنها لم تكمل عبورها ؛ فقد اندفعت نحوها السيارة الأنيقة يقودها شاب أطال شعره وصففه . القى الموت الأبيض بالعجوز على الأرض الأسفلتية . ومرق مزيدا من سرعته . هرب . لكن الصول عبد الحق التقط الرقم بسهولة قبل اختفاء السيارة . اتخذت الاجراءات فورا، والى المستشفى نقلت العجوز مشجوجة الرأس. بعد ساعات ، تم القبض على الشاب ، فتبين انه لا يحمل رخصة قيادة وقد استقل سيارة أبيه الذى يشغل منصبا كبيرا .

بدأت منذ الظهيرة تمارس على الصول عبد الحق ضغوط شديدة .. توسلات، تلويحات بعطايا ومغريات أخرى، تهديدات. مستقبل الفتى المدلل وحيد أبويه بين يديه . ليس مطلوبا منه سوى أن يقرر ان اشارة المرور لم تكن حمراء ، وان العجوز لم تتحرز عندما نزلت من الرصيف ، بينما كان المرور مفتوحا لسيارة ابن مدير البنك . جاءت أمه أيضا ترجوه . امرأة نحيلة شاحبة تلبس شعرا مستعارا أصفر . تدخن بشراهة ، وتصيح فى زوجها وفى كل من حولها بالقسم ، ولكن الى الصول عبد الحق كانت تتوسل بصوت شاك . لم تكن الاشارة حمراء . مفهوم ؟ هذا كل شىء . كلمة واحدة يتوقف عليها مستقبل الفتى النجيب الطالب بالسنة النهائية من كلية الطب . كان عسكرى المرور كلما ألحوا عليه وحاصروه اشتد اصراره وتشبث بالصمت . كلمه المحامى

أيضا ، بل ورأى فى عين الضابط نظرة مشجعة . العجوز ماتت ، راحت لحالها ، ولم تترك وراءها أحد ذا بال ، والحى أبقى من الميت . سأل الصول عبد الحــــق كى ينبههم الى عبث مسعاهم « وماذا انتم فاعلون فى أمر الرخصــة ؟ ابنكم غـــير مصرح له بالقيادة ! » قال المحامى « سنستصدر له تصريحا بتاريخ سابق » أراد الصول عبد الحق أن يستوضح « وهل هذا ممكن ؟! » قرأ الأب ذلك فى عينيه فبادره قائلا « هذا شأننا » وأضاف المحامى « كل الأبواب تفتح ، لماذا لا تجرب ؟ »

فك أزرار سترته ، ولم يحس برغبة فى القيام من رقدته . ظلت عيناه تحدقان فى السقف . وفدت رائحة زخمة من المرحاض. كان قد ألفها طوال السنين التى سكن فيها حجرته هذه المجاورة للمرحاض فى آخر الطرقة . لكن فى بعض الأيام كانت الرائحــة تعلو كريهة للغاية . لم تمتد أصابعه باحثة فى جيبه عن علبة سجائره .. كان يعرف أنه يجب أن يتدبر نقوده حتى نهاية الشهر . فى هذه الغرفة ماتت زوجته ، وهى تضع طفلهما الوحيد الذى لم يعش بدوره بعدها . لم يشعر بحاجة الى أن يتزوج من جديد . أحيانا، تنتابه الحسرة على عادل الذى رحل الى وديان الصمت مبـــكرا .. كان يتمنى لو عاش ابنه . كان سيربيه أحسن تربية كى يشب رجلا يدافع عن المظلومين والمهانين ، وحتى ان لم يستطع ان يرد اليهم حقوقهم ، فعلى الأقل ليشعروا انهم ليسوا فى هذه الحيـــاة

وحدهم . ما كان سيبخل عليه بمصروف . وما جدوى المال ان لم يكن للخير والفلاح ؟ شعر مبكرا ان الذى يلزمه هو أن يصفى حساباته مع الحياة ، فقد اقصته عن حضنها ، ولفظته منذ سنى شبابه الأولى . أصيب باحباط شديد ، بحزن حتى النخاع ، لم يلتفت حتى الى ناصحيه بأن يطلب من المحكمة ان تحكم له بتعويض على الطبيب الذى كان مشغولا تلك الليلة بلعب القمار فى بيت بعض الأصدقاء . كانت بطة تنزف نزيفا حادا . أعطوها حقنة ، مهدأة — على حد قول التومرجى — استراحت قليلا، ثم صرخت .. صرخت .. ابتلع الصمت كل صراخ بعد ذلك ، حتى صراخ وليده الذى نزل الى ليل الحياة عريانا يتيما يحتاج للأكسجين والعلاج . وما الجدوى من أى تعويض ؟ هل يعيد المال امرأته التى اضاعها الاستهتار والاهمال ؟ راح كل شىء لحاله الآن ، ولم يبق سوى شجن فى النفس مقيم . ومن وقت لآخر ينتابه شرود يقصيه عن دنيا الناس .

صار معارفه يتندرون عليه ، ويصفونه « بالعبيط » ويقولون « غاوى فقر » أما هو فقد انغلق قلبه . داخله احساس بأنه هو الذى قتلها ، فلو كان قد ذهب بها الى عيادة خاصة ، ربما ما أصابها ذلك الاهمال الذى أصابها فى انتظار طبيب المستشفى المجانى . صار فى عزلة . لاذ بزهد اعتبره بعض رفاقه فى السلاح غفلة وغباوة ، واعتبره البعض قناعة ندرت فى أهل هذه الدنيا .

...

تهدل الزى العسكرى على جسمه ، حتى قيل انه مصاب بالسكر ، لكن هذا لم يكن مرضه . كان يبتسم ويقــــول « وكيف يكون الرجل بدينا فى هذه الأيام ؟» .

زحفت العتمة الى غرفته . لم يحس بالرغبة فى أن ينهض ليوقد لمبة الجاز ، فقد كان بحاجة الى الظلمة تهدىء أعصابه . أدرك المحامى ان التعامل معه يحتاج الى جهد أكبر .وان الوصول اليه يقتضى تغييرا فى خططه . لجأ الى مراوغة استخف بها الصول عبد الحق اول الأمر . أشعل المحامى غليونه ، ونظر اليه من وراء نظارته القاتمة قائلا بهدوء مثير « فكر جيدا . لابد أنك لاتعرف ماذا تقول . هل تستطيع أن تتأكد مما اذا كنت لم تضىء النور الأخضر ؟ » أخذ المحامى تفسا من غليونه ، وغدت نظراته جارحة، « يقول زملاؤك انك على الدوام غارق فى الماضى . سرحان . معروف عنك شرود البال . انت تائه » أهو تائه حقا ؟! كانت هذه أول مرة يحس فيها بأن الحياة تتحرش به . تائه ؟! ماذا يراد منه الآن ؟! ان يخرج من عزلته والا هدمت على رأسه ؟! انتحى به المحامى جانبا وقال له « فكر . ونحن رهن اشارتك . ستصلك النقود فى مظروف مغلق ، ولن يدرك أحد بالأمر . نحن نعرف كيف نتعامل فى هــذه الظروف » وطلب من المحقق أن يؤجل الشاهد الوحيد الادلاء بأقواله الى الغد .

يعرف الصول عبد الحق ان الآخرين يعتبرونه « نكدى .

غاوى فقر » ولكن الكلمات التى قالها له المحامى اليوم أحـدثت
به اضطرابا لا قبل له به . كان عذابه اليوم أكثر من أى يوم مضى
كأنه وقف لأول مرة أمام مرآة ، ورأى حقيقته عارية . ود أن يفتح
قلبه لأحد ، وأن يخبره بأنه لم يتعمد النكد لاحد ، وانه ليس
« غاوى فقر » بل كثيرا ما فكر فى كل الأشياء الجميلة التى كان
يمكن أن يشتريها لعادل لو كان عامر الجيب .

ود لو أشعل سيجارة . حاول أن يغير مجرى تفكيره . مد
يده وأبعد ياقة سترته عن رقبته ، فقد كانت تخنقه . ثمة شىء
ضاغط يعتصر صدره . فى الآونة الأخيرة ، مضى وكيل المالك
يهددهم باخلاء غرفهم مدعيا قدم العقار وأيلولته للسقوط . وحتى
يثبت لهم قدرته على تنفيذ ما يلوح به تربص بنجية الأرملة العجوز
وهى تقضى بعض حوائجها بالخارج ، وألقى امتعتها القليلة على
قارعة الطريق . كان مالك العقار الدكتور صبحى رجب ــ ومن
لا يعرف طبيب الأشعة المشهور ؟ ــ بحاجة الى مكان يخزن فيـه
بعض الأجهزة المستغنى عنها ، فدبر وكيله لها مكانا بغرفة نجية
بجوار السلم عند مدخل البناية التى يسمونها « الوكالة » وعندما
تشبثت الأرملة العجوز بالعودة الى « مطرحها » وذرفت الدموع
قبل الوكيل توسلاتها وبعض النقود ، ورضيت أن تكوم امتعتها
على شبرين الى جوار أجهزة البيه «ربنا يخليه لنا» وأضحت تنام

على الأرض ، وقد جثم عليها جهاز الأشعة المستهلك مثل حشرة حديدية هائلة .

كانت ليلة بلا نهاية . لم يقرب النوم عينيه . فك حزامه ، أما حذاؤه فكان ينوى ان يخلعه فيما بعد . كانت عزلته طـوال كل هذه السنين أمانا له من الحـاجة للآخرين . ادار وجهه الى الحائط . الهواجس ذاتها تدور بضراوة فى داخله . فـكر فيما سيدلى به من أقوال غدا . نهض جلس الى كرسى ، وأشـعل سيجارة. هل أضاء النور الأحمر، أم كان قد أضاء النور الأخضر؟ هو غارق فى الماضى حقا . أيعنى انه قتلها ؟ .. كما قتل زوجته من قبل ؟! لماذا لا ينجو بنفسه ، ويحاربهم بسلاحهم أيضا ؟ فليطلب عن شهادته أعلى ثمن . ألا يفكرون بمنطق الصفقات ؟ فليخـرج اذن من هذه الصفقة بغنيمة أكبر ! هم تحت رحمته هذه المرة . ولن يرفضو له طلبا . ليس الأمر بحاجة الا الى مجرد ايماءة بالقبول، اطراقة رأس ، وينتهى كل شىء على ما يرام . وسيقول للمـالك ووكيله « وداعا ، وجدت غرفة أفضـل من هذه » وعنـدما يستفسرون من أين له الخلو ، سيبتسم ولن يجيب . سوف يبيـع عزلته غدا ، فكل شىء أضحى يباع ويشترى . وقد آن الأوان أن يعرف قواعد اللعبة . أحس بغصة فى حلقه ، ورغبة فى البكاء. منذ أمد طويل نضبت الدموع فى مقلتيه ، وكثيرا ما استجداها كى تخف وطأة الضيق الجاثم على صدره . كان بحاجة اليها أكثر

من أي وقت مضى كي يغسل احتقاره لنفسه ، وعجزه عن أن يتخذ قراره .

راح يدخن بشراهة . يشعل سجائره المعدودة . سيجاره تلو سيجارة . أحس بأن نهايته تدنو مع كل نفس ينفثه . لم يكن سوى نفر من أنفار الشرطة ، في السابعة والأربعين من عمره ، لا يذكر انه قام يوما بعمل خارق . لم يرتكب اثما كبيرا في حياته، ولا خيرا كبيرا أيضا ، ولكنه أحس الآن بأن عليه أن يتخلص من عجزه ، وأن يفعل شيئا . رأى الكثير أثناء خدمته الطويلة . ومن التصاقه بالشارع تكشفت له وجوه قبيحة .رأى الضرير يسقط تحت العجلات ، فتؤخذ بصمته على أقوال لم يقرأها ؛ ويحفظ المحضر . رأى الموت ، والكشط .. والتلاعب . وكل شيء في لجة الصمت يغوص . عليه الآن أن يفعل شيئا ، من أجل الضرير ونجية ، من أجل عادل والعجوز وبطة ؛ من أجل سكان الوكالة، وربما من أجل الناس أجمعين .

سحق بحذائه عقب سيجارته الأخيرة . طوفان داخل صدره، يضغط قفصه ، يبحث عن مخرج . ذهب الى النافذة يريد ان يصيح في الليل « يا عالم ، لا أريد ودكم الزائف ، فلن يبقى لي من لقائكم سوى كبرياء جريحة ! » أحس كيانه مهددا بخطر مبهم داهم . هب يدافع عن وجوده . اضطروه الى ذلك . استفزوه . لاحقوه الى أخص اسراره . أفقدوه حلمه وسكينته وهدوء باله.

فتح الشباك . أطل على الليل . أسرعت أنفاسه تفصد عرقه على ساعديه وجبينه . وأحس بحياته تسيل على ظهره ، من مكانه لمح الأرض الفضاء أمام الوكالة هوة داكنة . أول الأمر كانت مرتعا للأولاد ومتنفسا . ثم سورتها المؤسسة العقارية ، فكان الأولاد يقفزون من السور . زادت المؤسسة من ارتفاعه حتى صار متعذرا تسلقه واجتيازه . ثم جاءت شركة اعلانات وثبتت عليه حوامل معدنية قوية ، ألصقت عليها لافتات تجارية ملونة تطل على الطريق الرئيسى الذى تكثر فيه الحركة . أخيرا : علقت اعلانات مضاءة أيضا . نور النيون يلمع وينطفىء . أحمر ، أخضر بنفسجى ، ظلام ثم ينسكب فى الغرفة الأحمر العدوانى ، فالأخضر يحاول أن ينشر الذلة باسم الهدوء والسكينة ، فالبنفسجى المخاتل . الأحمر الدامى من جديد ، عين سعير متقد يصب حممه فى احشاء الصول عبد الحق . اعلان يقول بالخط العريض « بادر أنت » ثم تصوب اليد المشرعة نحوه علبة سجائر ، تخبط بها صدره ، تسحق ضلوعه ، تمزق أعصابه ، تحرضه .. تمرضه تشجعه .. تنبش أعماقه .. تهينه .. تكتسحه .. تفقده اتزانه ، تخرجه عن طوره ، يطيش صوابه . يفلت منه الزمام . هل يمكن ان يقول « لا؟ » « لا » مكروه هو . اسقط فى يده . اطبق على عنقه . لوى ذراعه . ودفع بالسكين فى جنبه . الأحمر الشهوانى .. الأخضر باغراءاته ووعوده ، البنفسجى بوقاره وحججه

وهمساته . ثم الظلام يهيل ترابه الأسود على كل شيء . مـد يده بسرعة تفك أصابعه المتوترة أزرار الجراب . سحب مسدسه القديم . اطبقت راحته على عجزه المعدنى . اختنقت انفاسه . أضحى الحصار الآن محكما . لابد أن يقـاوم . ان يدافع عن نفسه . نزل الى الحوش . جرى خارجا . دار حول السور . شهر مسدسه عاليا . أحكم تصويبه . تقلص أصـبعه على الزناد . ضغط . رجل أغمض احدى عينيه ينعم بالحلاقة بالماكينة الكهربائية . الرصاصة فى عينه الأخرى . ضغط . الرصاصة فى بطن الراقصة . ضغط . الرصاصة فى ظهر المستحمة . الرصـاصة فى الأسنان البيضاء اللامعة . « أجل ، انا الذى قتلتها » هذا ما سوف يقوله عندما تهرع الشرطة وتلقى القبض عليه . كانت الاعلانات هناك . جاثمة عليه . رابضة هناك . انهم هناك . معذبوه كلهم هناك . الأنيـاب البيضـاء اللامعـة التى تنهش اللحم الآدمى فى غابة المدينة صباح مساء . الاعلانات هناك ، الراقصة خواتم فى ملهى الأهرامات . كل ليلة هى هناك . عشـاء فاخر . الحجز بالتليفون هناك . للدخول رسم عشرة جنيهات هناك . لم يكن جسد امرأته عاهرا مثلما الأجساد فى هذه الاعلانات . عارية أخرى تستحم فى بحيرة عطور وصابون هناك . امرأة رشيقة تقود سيارة فاخرة . معاجين ، ملابس مستوردة ، فساتين سهرة . رحـلات رقصات ، أفلام .. كل شيء هنا ، فوق رأسه . والمرحاض هناك .

أفرغت الفوهة الملتهبة ما فى جوفها من رصاصات • ثم دوت الصفارات نائحة متوعدة قادمة من كل الأنحاء •

الثقب

* كان على أن أخلع ذلك الضرس منذ أمد . آلمنى مرة ثم سكن الألم . آلمنى مرة أخرى ، فتناولت أقراص الاسبيرون، فانزاح الألم . ثم آلمنى مرة أخرى . فلجأت الى المضمضة . فى كل مرة تجرفنى المشاغل . تارة فى المكتب استدعى لتحقيق أو شهادة وتارة يطلبون من ابنى فى المدرسة حضور ولى أمره ، ويأخذون عليه التعهد تلو التعهد . وتارة تعلن زوجتى فى البيت حالة الطوارىء ، فهى لا تنقطع عن التردد على طبيب النساء للعلاج والاستشارة . لكن هذه المرة ، عاد الوجع ، وتزايد . لم تنفع فيه المضمضة ، ولا المسكنات . كان يجب أن أذهب الى الطبيب .

فتحت فمى . دقق الطبيب النظر الى أسنانى . ثم هز رأسه وقال « أجل ، ها هو هناك . الضرس الثانى الأيمن ، بالفك السفلى . لا بد انه يؤلمك » هززت رأسى مؤكدا « جدا ،

يا دكتور » • قال « خراج • ليس بالامكان أن نفعل شيئا الآن• يجب أن يزول هذا الخراج • سأكتب لك على أقراص البنسولين• ابحث عنها فى الصيدليات • قرص كل أربع ساعات • قلت له « ألا يمكن خلعه الآن ، يا دكتور ؟ » • قال « ليس ذلك ممكنا • مادام الخراج موجودا عند جذور الضرس ، يجب أن نطهر تلك الجذور أولا » •

تركت مقعد الطبيب ، وأنا أمسح فمى بمنديل ورقى • على الحائط علقت لوحة ، كبيرة ، مظلمة • بها عينان تلمعان بين نباتات غابة استوائية • قلت له « كيف حدث كل هذا ؟ » • ضحك وقال لى « يبدو انك تريد أن تتعلم طب الأسنان » قلت له « كلا• أقصد •• » قاطعنى قائلا « الثقب الذى أحدثته السوسة قد اتسع وعمق • انظر اليه • انظر » • فتحت فمى ونظرت فى المرآة رأيت النقطة السوداء على الضرس الموجوع • قال الطبيب « كل شىء يبدأ من الفم » خيل لى انه قد اتسع ، وأصبح بئرا كبيرا ، هوة سحيقة • قال لى « ثانية بعد ثانية مضت السوسة تنخر ، دون صوت ، دون كلل ، دون عون من أحد • أنت وحدك تساعدها • أنت الوحيد الذى سمحت بوجودها وما أن جاءت وحلت فلا فكاك لك من معاولها • أرأيت لصوص الآثار ؟ بالليل ينبشون • يهوون بمعاولهم ، ويشقون الأرض ويغوصون • كل من حولهم غافل عنهم • هذه الغفلة هى التى تمكن من التسلل •

أنت تأكل ، تسرع بالنزول . لا تغسل اسنانك ، أو لا تغسلها جيدا . تشرب فى المكتب فناجين القهوة . تدخن لفائفك . وتترسب على الجدران شتى الرواسب . تثرثر . تعقد الصفقات . تكسب القضايا . تترافع تدخل محلا للحلوى . تتلذذ بأطباق البسبوسة . تشترى أشياء . تودع مبالغ فى رصيدك بالبنك . يزداد احساسك بالطمأنينة ، بينما البقايا تتخمر ، والتسلسل يمضى .. لا تعتقد أنه على أسنانك قاصر . انه يسرى فى خلاياك فتبدو التجاعيد . لا تحس بالمشيب يدب الى فوديك أو الى مؤخرة رأسك ،حتى وأنت تقف أمام المرآة معتنيا بمظهرك ، معجبا بمظاهر شبابك ، أو معزيا النفس بأنك لازلت به محتفظا .. رغم كل شىء ، لكن المشيب هناك . يتسلل ويزحف . وفجأة يبين أمام عينيك ، ضئيلا أول الأمر ، فلا تكترث . لازال فى الوقت متسع .. هكذا تقول لنفسك . وفجأة تكتشف انه احتل مواضع جديدة . لا شىء يحدث فجأة . يجب أن تعرف ذلك . السبب هناك . النتائج تترى بعد ذلك . السوسة قد وسعت ثغرتها . وهى ماضية ، رغما عنك ، ودون أن تراها . افتح فمك جيدا وانظر اليها » .

فتحت فمى فتحة أكبر . « أنظر » ملت الى الأمام . ازددت اقترابا من المرآة . مثل جب بدالى ، وعلى جانبيه صخور بيضاء . هتف الصوت الجائر « اقترب أكثر . اقترب . افتح فمك ،

وأنظر » . أطللت . دخلت ذلك الجب . أطبق على . وقفت أنظر حولى . حوائط لينة ، لا يسمع لدقاتى عليها أدنى صوت . بحثت فى جيوبى ، أخرجت عود ثقاب وأشعلته . رفعته فوق رأسى . وبدأت أتبين ما حولى . فى ظل الضوء المهتز ، بدا لى كل شىء كأنه يتهاوى على رأسى ، ولكنه فى اللحظة الأخـيرة يتماسك ، ليعود فينهار على . دون أن يتهاوى . الجو خانق ، والرائحة كريهة تفد من الحلقوم . حركة تقلص . وجـدت نفسى انزاق وأتدحرج على سطح اللسان ، واقترب من ماسورة البلعوم . زحفت . تشبثت بحبات الرمل الملتصقة بسطح اللسان . انحرفت جانبا ، وتعلقت باحدى الصخور البيضاء . صعدت عليها متخبطا . عندما ارتقيتها ، جلست أستمع لأنفاسى . ملت بجذعى الى الخلف ، فوجدت نفسى أسـقط فى هوة أخرى ، أضيق . ارتطمت فى سقوطى بجدار صلب أملس ، عاجى . فى قاع ذلك البئر ، وقفت أنظر الى أعلى جاحظ العينين قائلا لنفسى منذا الذى سيصعد بى الى فوق ، من سيخرجنى ؟ سمعت من يحدثنى ؛ ولكن لا صوت من حولى ، ولا نامة ، فقط هناك معاول تهوى ، معاول دقيقة مرهفة . أرض القاع من تحتى تهبط ، وحوائط البئر من حولى تتسع . أكانت السوسة ، تعمل ؟ الصوت يراقبنى . ملايين العيون الصغيرة السوداء تلتصق بمسامى ، وتنظر الى ، متسلقة زاحفة . رفعت أصابعى الى وجهى . ملايين العيون رفعت الى عينى .

انكمشت تضاءلت • كيانى يتناقص • يتفتت • يتآكل • يزول •
« أين أنت ؟ أين ذهبت ؟ » كان هذا صوت الطبيب يفد من بعيد ،
من خارجى • فتحت فمى كى أصيح • خرجت سريعا ، مهرولا •
التفت الى الطبيب الذى يبحث عنى « ها أنا ذا ، ياطبيبى ؟ هلا
خلعت لى ضرسى ؟ أرجوك : الآن » قال لى « كلا ، كلا ، لن
أحرمك من متعة المضغ ، لا زال العمر أمامك طويلا • فقط ،
استخدم الأقراص كل أربع ســاعات • وعندما يزول الالتهاب ،
تعال • سأحشوه لك » • أحسست بالردم ينهال على رأسى •

قال لى الطبيب مودعا « لا تهمل • للأسنان علاقة بكل
الأمراض • ضعف البصر، والسمع، وأمراض المعدة، والروماتيزم،
والشلل • أجل ، والشلل أيضا » •

لحظة لقاء

● عندما يجيء الموت ٠
ذلك الذى يخطف الرضيع من على ثدى أمه ؛
كما يختطف العجوز الذى تقدمت به السنون
عندما يجيء ذلك الرسول كى يأخذك ، فليجدك
على أهبة الاستعداد جاهزا ٠
من كتاب الحكمة لبتاح حتب

❊ صادفت احالة صفوان حلمى الى المعاش صـــدور أمر بالطرد من البيت الذى سكنه منذ ست وثلاثين سنة ٠ ظهر فى الواجهة شرخ طولى ، أجمع خبراء التنظيم أن المبنى أصبح آيلا للسقوط ، وربما هوت الأنقاض على رؤوس السكان فى أى وقت بالليل أو النهار ٠ وقد نقل بعض السكان أمتعتهم على وجه السرعة الى بيوت أخرى ٠٠ أغلى ايجارا بالضرورة من شققهم فى العمارة التى شاخت ، ولم تعد تقوى على الوقوف صلبة العود ٠ وان كان البعض قد مضـــوا يتشبثون بشققهم الى آخر لحظة ، واستماتوا فى عدم اخلائها حتى جاءت اليهم أوامر الطرد مصحوبة بتهديدات الســلطة بالاخلاء عنوة ، والالقــاء بهم الى عرض الشارع ، هم و « كراكيبهم » ــ على حد تعبير مندوب التنظيم الذى استثارته مراوغة السكان فى الامتثال للقرارات التى صدرت اليه الأوامر بتنفيذها ، ويود أن تنفذ دون وجع الدماغ ٠

أما صفوان فقد كان من المسالمين • جمع حاجاته ، وانتقل الى سكن جديد ، بلا جلبة أو جدال ، فهم — وقد رأى الشرخ الطولى قاصما لكاهل البناء — ان الأمر قد قضى ، ولا مفر من الاذعان ، فلكل شيء آخر ، حتى اذا كان بناء اعتبر زينة الحى عندما شيد على ناصية أحد شوارعه التى شقت منذ سبعة وستين عاما أو زهاء •

استغنى صفوان عن أشياء كثيرة ، مرغما على أى حال • باعها الى تاجر أشياء مستعملة برخص التراب • ولم يكن الثمن نصب العين ، بل كان الاستغناء عن أشياء لم يعد لها مكان فى الحيز الجديد هو المرام ، فمن غير المستطاع أن تستوعب غرفتان حاجيات شقة من خمس غرف وصالة ، ومن الطراز القديم أيضا • ومهما كانت أشياء الأيام الخوالى عزيزة على القلب ، فليس لشقق هذه الأيام قدرة على استيعابها ، ولا يبقى لصاحبها اضطرارا — اذا أراد أن تبقى ملتصقة به — سوى الذكريات •

رتب صفوان ما جلبه معه من قطع الأثاث وصف ما احتفظ به من كتب على الأرفف • واستعان بأم نوال — الوحيدة التى بقيت له من الحى القديم — فى كنس الشقة الجديدة وازالة الجير والطلاء الزائد من على الأرضية البلاط • بعد بضع ساعات لم يغالب صفوان الرغبة الحارقة فى أن يفتح الباب الخفيض ، ويخرج الى الشارع تلو الشارع فى هذا الحى الجديد الذى لم يزدحم

بعد بالناس ، فبدت أرجاؤه مقفرة باردة اذا ما قورنت بأرجاء الحى القديم البعيد الآن ، الذى تتردد أصداؤه فى المخيلة كأنها نغمة شجية من اسطوانة على الحاكى العتيق الذى باعه صفوان ضمن ما باع .

فى الشهور الأولى ، كان يغلق باب شقته ، ويمضى الى محطة الأتوبيس يركبه الى الحى القديم ليجلس فى مقهى « السعادة » مع جيرانه القدامى يشرب كوبا من الجنزبيل كعادته ، ويتابع من يلعبون الطاولة ، فاذا كانت اللعبة دورا من الشطرنج زاد اهتمامه وتسمرت عيناه على القطع الخشبية التى تتحرك بحذر وذكاء على الرقعة المقسمة الى مربعات بيضاء وسوداء . ولكن مع الوقت أحس بأن المشوار بدأ يصبح طويلا وثقيلا . ربما استفحل الزحام فى الاوتوبيسات هذه الأيام ، أو ربما تزايدت اصابة موتورات هذه السيارات بالعطب ، فيطلب من الركاب النزول لأخذ الأتوبيس التالى . وفى الصعود والمزاحمة والهبوط مضى صفوان يشعر بالتعب ، فثبطت همته ، وقل تردده على الحى القديم الطيب . وبخاصة ان أعز جيرانه الحاج عمران ما لبث أن توفاه الله ، وظل مكانه فى المقهى وفى القلب خاليا . أما جورجى أفندى صراف المالية القديم فقد حزم أمتعته ورحل على كبر الى كندا حيث كان قد سبقه أكبر أبنائه الدكتور سامى الذى صرف

عليه دم قلبه فى مدارس الفرير ، ومضى يلم شمل الأسرة حوله فى مونتريال .

فى ذلك المساء عاد صفوان متأخرا من عزاء آخر أصدقاء الحى القديم ، وهبى أفندى ، باشكاتب عموم الأقلام . مرض ، ولم يمهله المرض طويلا .. عند باب العمارة التقى صفوان بميو .. اعتصرت قلبه بين ضلوعه عينان فوسفوريتان تسلطان عليه نظراتهما من وراء الزجاج السميك . وما ان اكتشف انهما عينا قط مختبىء حتى كان صاحب العينين النفاذتين اللامعتين أسرع منه ، فقد أقبل عليه يموء ويتمسح فى سرواله متوددا . ثم مضى فى أعقابه يقفز درجات السلم صاعدا . أطل عليه صفوان فى الظلام وابتسم، فقد كان الحيوان الأليف يرفع اليه رأسه المستدير بين الفينة والفينة ، ويحرك ذيله المنتصب كما لو كان يدا ممدودة اليه بالتحية .

عندما وصل صفوان الى باب شقته ، سقط منه المفتاح . انحنى يلتقطه . ولم يغالب نفسه من أن يربت على رأس ميو الذى استجاب اليه واستكان لملاطفته . كان فراؤه رطبا من أثر الأمسية التى ما كانت تخلو من لذعة باردة تنذر بأن الشتاء قد خطا حثيثا الى الأرض . وعندما فتح صفوان الباب كان القط أسرع منه فى الدخول . ومضى يتكشف أنحاء البيت الذى قرر أن يسكنه .

مع الأيام فترت الأحاديث ، تباعدت العبارات ، واضحى الكلام فى المقهى فاترا أجوف . كل قول صار تزيدا . كل ايماءة جثة بلا روح . أغصان يابسة تقطع وتلقى فى النار التى تظل منطفئة . كل شيء ركد . كل نفس همدت وتأهبت للرقاد . لم يعد هناك ما يقال . لم يعد ثمة ما يضاف . كيف أصبحت ؟ مثلما أمسيت . ما الأخبار ؟ لا جديد . ما من جديد كان ينتظر .

لم يحس صفوان بذلك الحى القديم متغلغلا فى دمه قدر ما أحس به عندما نزح عنه . كل شيء يذكره به ، وعلى الرغم من أنه لم يعد يتردد عليه فى الآونة الأخيرة ، الا أن الحنين اليه ظل الى حين يملأ قلبه . صدق اذن ذلك القول بأن بطن المرأة بعد الوضع تبحث عن الجنين الذى كان بها . يلوم صفوان نفسه أشد اللوم على رحيله لكنه يعرف انه ازاء أزمة المساكن المستحكمة ما كان يمكن أن يجد خرم ابرة الا فى هذه الضاحية الجديدة على مشارف المدينة التى تمتد فى جميع الاتجاهات ، والى هـذه الامتدادات تلفظ المدينة القديمة أبنـاءها من أحشائها . لكنه ما كان يلبث أن يهدأ ويقول لنفسه « كل أرض الله سواء » ثم فى النهاية ، هذه الشقة الصغيرة البيضاء ، حديثة الطلاء ، لا عيب فيها بعد أن ألف سقوفها الواطئة وحوائطها المتقاربة وكواتها الضيقة .

لم يعد الحى القديم هو الحى الذى يعرفه . انفصل عنه . لم تعد صورته فى مخيلته وصورته فى الواقع تتطابقان ، ابتعد صفوان . ابتعد كالأرض بالنسبة لباخرة تمضى الى عرض المحيط . استحال كل شىء فى ذلك المكان القصى الى ذكريات ضمن الكثير من الذكريات الأخرى .

هكذا كان الأمر أيضا فى شبابه عندما جاءه أمر النقل الى القاهرة كان يعتقد انه ليس بممكن أن يبتعد عن الاسكندرية ؛ ويقول نحن السكندريون مثل السمك اذا أخرجنا من مياهنا متنا . أول الأمر لم يترك شقته هناك .. فى محرم بك .. ظل محتفظا بها شهرا تلو شهر . ومضى يقطع المسافة بالقطار ثلاث مرات فى الأسبوع . ثم بعد خمسة أشهر سكن شقته فى الحى القديم ؛ ومضى يسافر الى الأسكندرية كل أسبوعين ، ثم بعد ذلك كل شهر . بعد سنة كان يذهب الى الأسكندرية فى الصيف فحسب . ثم لم يعد حتى فى الصيف يذهب اليها . أصبح الحى القديم ذو المآذن والعطفات والمشربيات ودكاكين العطارة هو التربة التى انغرس فيها وتشعبت فى طينتها جذوره .

فى الحى الجديد لم يعقد صفوان صداقات حقيقية ، بل أصبح له بعض المعارف فحسب .. الأسطى أمير الحلاق ؛ الذى أدرك سريعا أن زبونه على المعاش ومقطوع من شجرة ، فكان يتفنن فى استخدام المقص حول الرأس ومن الخلف وعند الأذن ،

دون أن ينقص من الشعر شعرة ، فتطول الجلسة وتمضى الثرثرة التى كان يضجر منها صفوان فينشغل عنها بتصفح المجلات التى تعرض كثيرا من الموضوعات المثيرة كمصرع راقصة ، أو اكتشاف مقبرة فرعونية نهب اللصوص محتوياتها ، أو تلف بعض المومياات فى المتحف حيث كان يعمل فترة من حياته الوظيفية .

ومن معارف الحى الجديد أيضا الحاج عطوة البقال ، الرجل المتدين الذى يملأ حوائط دكانه بالآيات المكتوبة بخط كوفى أكثر مما يملأ أرففه بمواد البقالة . مسبحة صفراء ولحية بيضاوية .. كان صفوان يمر عليه ويشترى قطعة من الجبن لعشائه أو علبة سمك محفوظ لغذائه أو ثمن زيتون أسود كلما توافر الصنف .. يتبادل معه الكلام فى حال الدنيا ، ويؤكد له الحاج عطوة ان أخلاق أولاد اليوم قد تدهورت الى الحضيض ، وان يوم الحساب قد دنا ، ويدلل على ذلك بالعديد من الامارات والشواهد .. لكن كل ذلك ـ كما لاحظ صفوان ـ لم يكن يمنعه من أن ينقص فى الكيل .

زادت الحبال الواصلة بالآخرين تقطعا ، واتسعت من حوله هوة الصمت . كان يجر كرسيه الى جوار النافذة البحرية التى تطل على الشارع ، ويقتل الوقت يتابع المارة . لا زال الناس يجيئون ويذهبون . لا زال البعض يمضى واثق الخطى يدق أسفلت الطوار بحذائه . يتداخل السائرون . يمضون . يمضون .

يحتفون عنـــد المنعطف • يأتى غيرهم • يمضـــون • يبتعدون ويتبددون •

فى الغروب ، يخف المارة ، وتهدأ الحركة ، عندما تغلق البنوك والشركات أبوابها فى الحى التجارى القريب ، ويصبح الطريق مقفرا ، وعلى الجانبين بضع شجيرات هزيلة ، تصـــارع أغصانها النحيلة الجرداء لتطول السماء • صورة بنفسجية تزداد انطفاء كلما انطفأت من العينين نعمة البصر ومن على أســـفلت الطريق يتعالى وقع سنابك جواد أبيض يقبل من عند المنعطف مسرج وبلا راكب يمتطيه • ثم أخذت الاذنان تضعفان • ومن بعدهما كل الأعضاء •

اذا ما تكلم اليه أحد يســـمع الكلام كأنه لا يوجه اليه ولا يعنيه ، يبدو له غريبا عنه • يطرق أذنيه ولا ينفذ الى عقله أو قلبه • ثمة صوت فى أعماقه على العكس من ذلك يتمرد على كلام الناس الموجه اليه • ويهتف به : ما شأنك أنت وهؤلاء ؟ أمامك أمور أكثر أهمية وجسامة من هذه الثرثرات الجوفاء • هذا الصـــوت يزداد فى أعماقه تمردا ورفضا لكل ما يفد اليه من الخارج • أنت مقبل على حدث جلل •• وكل يوم بقى لك يقربه منك •• ماذا ستفعل ؟ عليك أن تتأهب له •

لم يبق على الاطلاق شىء • أضحى الوجود خواء مضنيا • كان لابد من الخروج • فكر صفوان • فكر بواقعية • فكر فى

وضعه الراهن ، فيما بقى له : الأصدقاء ؟ راحوا . القراءة ؟ عناء .. الذكريات ؟ طيور مهاجرة .. وماذا بعد ؟ وجد أن الشيء الوحيد الذى بقى له ، الذى يجذبه وينتشله من خوائه ، الذى يعتصر قلبه — ما أن يتأمله — بقبضة فولاذية ، ويطالعه بوجه مبهم غامض ، هو ذلك الرفيق الموجود وغير الموجود ، الذى يجرفه دون أن يعرفه .. شدد صفوان قلبه . طرد هواجسه . وبقى له شيء من الصـفاء الذهني . يذكر الامتحانات ، ليس المدرسية منها فحسب ، بل امتحانات كل يوم . في تلك اللحظات، كان يذوب فيه كل شيء، ولا يبقى منه سوى ذهن متوقد متربص. عاد اليه ذلك الصفاء القديم ، ومضى يقلب الأمر ، وينقب فيه بامعـان وتمحيص . انه هـو ! اذن ، هـو ؟ كيف ؟ أين ؟ هنا ؟ متى ؟ وعلى الأخص كيف ؟ ما هو ؟!

ذات مساء ، وهو يقرأ تحت ضوء المصباح ، أحس يديه ترتعشان ، وترتعش معهما الجريدة التى يمسك بها . وضعها على المنضدة المجاورة ، وبسط يديه يتأملهما . قلب راحتيه ، ونظر اليهما . كان الجلد غضنا تناثرت عليه البقع البنية . لا شيء تغير. فقط ، العروق الخضراء بطول ظهر الكف زادت نفورا واخضرارا. اهتزت الأصابع النحيلة الشاحبة قليلا . ابتسم . ارتسمت تجاعيد ثلاث على كل من ركنى فمه . حدث نفسه قائلا « ترى ، هل شخت هذه الأيام ، يا آبا مدحت ؟ » وتحجرت الابتسامة على

شفتيه . منذ بضعة أيام وهذا التساؤل يزداد الحاحا رغم محاولات التملص من الاجابة . مضى يحصي ما انقضى من السنين « لم تكن بالكثيرة جدا» هكذا كان يهتف في أعماقه هاتف . «لكنها ليست على أي حال بالقليلة » هكذا أيضا همس في أعماقه صوت زلزل صمت البيت من حوله .

عزم على النهوض ليعد كوبا من « الينسون » . لو كانت أم نوال هنا لجنبته مشقة البحث عن أعواد الكبريت واشعال الموقد ، والتنقيب في دولاب المطبخ عن علبة الينسون ، لكنها ليست معه كل يوم . وحتى في اليومين المحددين لمجيئها كل أسبوع كانت تتأخر كثيرا في الحضور لتسلم عملها في الصباح .. وأحيانا تنقطع أياما وأياما وتعود بأعذار وهمية . يدرك صفوان ذلك جيدا ، الا أنه يقول « بعد كل هذا العمر وطول العشرة ، هل يمكن استبدالها ؟ » وهل يضمن أيضا أن من ستأتي لتحل محلها أفضل منها ؟ ثم انه في الحقيقة ما كان يرتاح الى غير أم نوال التي عاصرته منذ أيام الحي القديم .. في ساقيه نقر يكاد يكون منتظما مثل نبض القلب ، وفي قدميه ثقل يشدهما الى الأرض ، فيتوق للبقاء في كرسيه جالسا ، ممدد الذراعين على قطيفة المسندين الخشبيين المنقوشين . تقلصت أصابعه الآن على رأسي الأسدين المحفورين في مقدمة المسندين . دس قدميه في الخفين الصوفيين ، وهم بالقيام . زاد ظهره ، انحناء كما لو كان العبء

قد ثقل على الذراعين . غلبه التعب فعادت عظمتا عجزيه النافرتان تغوصان فى الوسادة الطرية المنحولة . أمواج وأمواج تنهال على منكبيه فى خواء البيت . عاد يلوذ بالجريدة . نام فى كرسيه . مال رأسه الأشيب على صدره ، وعلى الخد الضامر انعكس ظل أصفر . تدلت ذراعه اليمنى الى الأرض ممسكة بالجريدة . كان يقرأ فيها عن جريمة قتل ظل القاتل فيها مجهولا . أما راحته اليسرى فقد استقرت فى حجرة ساكنة بخطوطها الغائرة . وفى خنصره لمعت دبلته الذهبية . ومع نومه نام الألم فى ساقيه وظهره، ويا للسعادة أن يكون المرء بلا ألم . حملته السفين بعيدا . وفى حلمه ، مد يـده وربت على شـعرها . ما عاد جلده جعـدا ، ولا للكيسين المرتسمين تحت مقلتيه وجود . يسـير الآن معها ممشـوق القـامة خفيف الخطى على ممشى رملى فى حديقة « الشلالات » شاب هو فى السادسة والعشرين الى جوار فتاة فى العشرين ؛ فاحمة الشعر تنسدل جدائلها على الكتفين يمد يده يمسك بيدها . تسحبها فى خجل ، وتنظر اليه بعينين واسعتين . لم تكن منطفئة النظرة مترهلة الجسم كما أضحت فى السنوات الثلاث التى سبقت وفاتها الباكرة .

لم يبق سوى مواجهة العدو . وجد نفسه فى النهاية وحيدا ينتظره . ربما جاء اليوم . ربما جاء غدا .. بالليل لا يسقط زر النور البيضاوى من قبضته . فى أية لحظة سيحس باقترابه

سيضغط على الزر وستضيء الغرفة • انه لا يريد أن يلتقى به فى الظلام ، بل فى النور الساطع ، حتى يراه وجها لوجه •• لم يكن شجاعا فى حياته • هذا صحيح • لم يأت عملا من أعمال البطولة • لم يلتحق بالجيش • كان وحيد والديه فى سن الجندية فأصابه الاعفاء • لم ينقذ غريقا من الغرق • ولا أحدا من حريق ، بل انه أيضا لم يدخل فى معارك مع غريم •• ولكنه أيضا لم يكن جبانا متخاذلا • وها هى معركته تقترب • الموت ليس توقف القلب عن الخفقان ، بل توقف العقل ، وانطفاء الحواس • فليواجه اذن العدو المجهول المرتقب • انه لن يصرعه • ولا يدعى لنفسه القدرة على ذلك • فليواجه العدو المتوقع بوضوح وصراحة ، على الأقل • كل ما يريده هو أن يعرف • فى هذا خلاصه حقا • على الأقل ، ان يعرف • وبعد ذلك ، يهون كل شيء •

انه آت فلا بد من مواجهته • لم يكن لصفوان آثام كبيرة حتى يشغل الندم باله كثيرا • كل أيامه الماضية طرحها عن كاهله ، فرغ لملاحظة حاضره وتأمل ما هو آت عن قريب • طالما لا يمكن الا يأتى يوما ، طالما لا يعرف كيف يصرعه أو حتى كيف يكون الهرب منه ، طالما لا يمكن تجنبه أو معاداته ، فلا أقل من التلاقى معه ، والالتحام به • اذا ما هبت الريح انحنى الشجر الحكيم لها ، ومضى الرمل وأوراق الخريف مكتسحا فى مهبها • لا يقاوم الغصن فلا ينكسر • لا يرفض الرمل والورق الساقط بل يمضى

طيعا مختارا الى حيثما يحمل ويلقى به • هكذا سيفعل صفوان ••
ولكنه أيضا ليس بغصن شجرة ، ولا حبة رمل ، ولا ورقة ذابلة ،
بل هو انسان ، فاذا جاء الغريم سيمضى معه ، ولكنه سيعمل كل
ما أوتى من حواس وفطنة ، ليفهم ، ويتأمل ، سيبسط الشراع
ويمضى معه • وفى كل خطوة سيحاول أن يلمسه ، ويزداد معرفة
به • فهذه هى المنحة التى وهبت للانسان : أن يحاول أن يفهم ،
أن يصر على الفهم ، فالحقيقة لا تأتى اليه كلها واضحة طيعة •

كل ليلة ، يرهف السمع ، ويحدق فى الظلمات قدر امكانه •
متأهبا ، بلا توتر • يلصق ظهره بالحائط ، أو على الأقل ، يجعل
ظهره للحائط قدر المستطاع حتى لا يجىء العدو من الخلف ،
فيباغته ، ولا يتيح له أن ينعم بالفرصة التى أصبحت شغله الشاغل
الآن • وربما تسليته أيضا • فالاستعداد للحظة المرتقبة ، الآتية
ولا ريب ، أصبح يملأ ساعاته •• الذى لا يريد أن يدعه يفلت من
يديه هو استيعاب هذه اللحظة •• هو معايشتها بوعى •
يريد أن يسمع كل ما يمكن أن يسمع : أن يرى ، أن
يلمس ، أن يشم ، أن يعانق ، أن يلقى بعيون مفتوحة ،
وآذان مرهفة ، أن يستقبل ولا يدفن رأسه فى الرمال ،
أن يسأل ويتلقى اجابة : أين ذهب بابنه ؟ ماذا فعل بامرأته ؟
وبالآخرين ؟ لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك • لن يشتت جهده •
لن يبعثر وقته بالأسئلة • سيركز اهتمامه كله فى نفسه • لحظة

اللقاء هذه علاقة ثنائية بحت ، ولا تقبل أطرافا اضافيين ، وليست بحاجة الى شهود • وسيعاينها فى صمت مركز •

يدفع كرسيه الخشبى ، ويضعه فى ركن الغرفة ، فى مواجهة الباب ، والشباك المقفل عن يمينه • يغوص فى مقعده مستريحا ، عاقدا يديه تحت ذقنه ، مثبتا عينيه محملقا • ثم يجيل ببصره مدققا منقبا •• فى السجادة على الأرض ، فى السقف ، فى الحائط ، فى الدولاب والمنضدة ، فى المرآة ، على الأخص المرآة المستديرة ذات الاطار المذهب • فيها يرى ما وراء ظهره ، حتى لو كان الحائط العارى ، كما كان يرى فى تلك المرآة وجهه • تلتقى على صفحتها عيناه بعينيه ، وكثيرا ما تأمل فيها التجاعيد الغائرة على جبينه ووجنتيه الضامرتين ، وحول عنقه • ان المرآة بالنسبة له سلاح فعال فى معركته المقبلة ، واداة يعول عليها الكثير فى مواجهة تلك اللحظة واستيعابها • يتابع نفسه فى المرآة ، فهناك احتمال أن يحط عليه غريمه دون أن يجتاز الحجرة • عندئذ عليه كى يراه أن يرى نفسه وبمتابعة هيئته فى المرآة سيتابع اللقاء المرتقب لحظة لحظة • سوف تكون رهيبة وفريدة وممتعة معا • قد لا يأتى العدو من خارجه • قد لا يفتح نافذة أو يقرع بابا أو يذرع غرفا ، قد يقفز من داخله ، فاذا لم يعمل حسابا حتى لذلك ، فقد تفوت عليه الفرصة •

أعد كل الترتيبات فى غرفته ، قاس كل شبر منها ، وأعاد

تنسيق كل شيء فيها ، أسقط كل ما علق على الحوائط ويمكن الاختفـاء وراءه أو فى ثناياه . اتخذ أنسـب المواقع لسريره وكرسيه . وبث فى الأرجاء كل ما يمكن أن يكون أجهزة استقبال وتحذير . أصبحت الغرفة رقعة شطرنج صفت عليها القطع بحساب وروية .. هذه الغرفة الصغيرة المحدودة ستشهد انتصاره الصامت المتواضع الخاص جدا ، المهول .. انتصاره الكبير الأول ، وربما الأخير أيضا .

يفكر فى ذلك . ينظم كل شيء ، دون أن يشرك أحدا فى خططه . يتوخى الكتمان ، كما لو كان يخشى أن يتسرب سره الى عدوه . كان يطلب من أم نوال عندما تجيء لتنظيف الشقة ، مرتين فى الأسبوع ، أن تدفع الكنبة الى جوار الحائط المقابل ، أو ترفع كرسيا من مكانه ، أو تخـرج دولابا الى الردهة ، أو تحضر من الغرفة الأخرى وسادة أو مشجبا .. ولكن دون أن يقول لها لماذا يفعل ذلك . تتذمر أحيانا اذا تكرر نقل ذات الشيء من مـكان الى مكان ، وتضحك أحيانا أخـرى ، لكنه كان يلزم الصمت والكتمان فى الأحوال ، فهو يعرف أن السرية لازمة لدحر أى عدو ، فما بالك بعدو من صنف عدوه ، وفى معركة مثل معركته.

لم يرض صفوان للقائه المرتقب بغير قطة رفيقا . فهو ليس انسانا ثرثارا متخاذلا . وهو حاد السمع ثاقب البصر ، يسمع قبل سواه أى حفيف أو دبة فى البيت ، ويلمح فى الظلمة ما لايلمحه

غيره • وكم يعجب صفوان به وهو يرفع رقبته من رقاده وتنتصب
اذناه ويحدق بعيدا ، كما لو كان يرى وافدا هناك ، ربما خلف
الحائط أو ربما يصعد السلم ملتصقا بالجدار أو متسترا بالظلال،
ويبقى مشرئب العنق متحفزا •• وربما زاد من استعداده للمواجهة
فأقعى • ويمضى يتشمم الهواء ، فاذا ما وثق ان الوافد الخفى
قد ابتعد ، وزال وجوده من البيت، عاد فتمدد عند قدمى سيده،
وأسند ذقنه الى ساقيه القطيفيتين السوداوين وعاد الى طمأنينته•
وقد اعتبره صفوان أيضا واحدا من أجهزة الاستقبال ، وعول عليه
كثيرا ، فهو فى نقوش الفراعنة يمسك برأس الأفعى رمز الظلام•
هاتان العينان المستديرتان الصفراوان الخضراوان المشقوقتان
طوليا تريان ما لا يمكن لامرىء أن يراه • تلك الأذنان المخروطيتان
تتحركان فتلقطان حتى ما لا يسمع من همس أو دبيب • ذلك
الخيشوم المثلث الشكل الوردى اللون الحساس يتشمم الهواء
فى المنور وبئر السلم • ثم ان تلك الرشاقة وليونة الحركة يجب
أن يعمل لها حساب أيضا فهو فى لمح البصر وببضع قفزات محكمة
يكون عند الباب اذا مسته يد بأوهى دقة ، أو فى المطبخ اذا وفدت
منه خشخشة ـ ان ميو واثق من نفسه معتز بقدراته • حارس
وفى هو ، ورفيق يعتمد عليه فى تلك اللحظة التى قد تكون
حافلة •

بعض الناس يفضلون الكلب وينعمون بصحبته فى البيوت

.. لكن صفوان كان أميل الى ميو . فمنذ اليوم الذى قرأ فيه كيف افترست كلاب الالهة ارتيميس الخمسون راعى الأغنـــام المسكين الصبى اكتيون ، وكيف مزقته اربا لمجرد انه رأى سيدتها تستحم عارية فى غدير بين أحضان جبال كيثيرون بأرض اليونان، وهو يكره الكلاب ويخشاها . يقشعر لتصـــورها وقد انشبت مخالبها فى لحمه وغرست انيابها فى بطنه . كيف قفزت عــلى كتفيه وصم نباحها أذنيه وهو يطوح بذراعيه يمنة ويسرة دفـاعا عن نفسه عبثا . وطالما انه ليس الها ، فلابد أنه اذا جاءت اللحظة فان الكلب قد ينقلب عليه باشارة من الأمير القادم المخيف ، فيفتك به ، اما القط فهو ماكر خبيث رابض الجأش لا يلعب به ولا يشترى بسهولة .

الأمر الذى يقلقه أكثر من غيره هو فجائية الموت . كـــان يخشى أن يباغته ، أن يأتى فى لحظة لا يتوقعه فيها ، فلا يكون مستعدا لملاقاته ، وعندئذ ربما فسدت خططه أو على الأقل ، لن تتاح له الفرصة لمعاينة التجربة كلها بالحضور والتيقظ المرجوين.

ومضى يفكر . تساءل كيف سيأتى ؟ فى آية صورة سيأتى؟ كضربة على الرأس ، أم كطعنة خنجر ؟ من الأمام ؟ من الخلف ؟ أم كصخرة تهوى من حالق وتدك العظم ؟ أو ربما جاء فى هيئة وحش ينقض ، أو لعل الأرض تنشـــق عند موطىء القــدمين

وتبتلع . أو ربما تطبق على العنق أصــابع قوية تضغط وتضغط . أو حبل ينعقــد وينغرس ، يضــيق الخناق حتى يزرق الوجــه وتجحظ العينان ويتدلى اللســان من الفم . أم انه لا هــذا ولا ذاك . أهو بتر ، أم سحق ، أم اجتثاث ، أم انجــراف ، أم ابتلاع ؟ أم اعصـــار ، أم ماذا ؟ أهــو نار تحــرق ، أم برد يجمد ؟ دفعة الى الوراء وسقوط فى هاوية ؟ أيكون لهبا ، أم شظايا ، أم تنينا ، أم سيلا ، أم شلالا هادرا وموجا متلاطما ؟ هل سينقض نسر يخطف روحه ، أم سينفتح بئر يهــوى الى قراره ؟ هل سينتصب أمامه سلم يصعد درجاته الى السماء أو يدفع به نزولا الى جب سحيق رطب تجرى فيه الحشرات والجرذان من حوله ؟ أهو حجر ثقيل يجذب الى أسفل ، الى أسفل ؟ أهو مخلب ينشب فى اللحم ؟ أهو شمس تغرب أم هو يوم يشرق ؟ أهو حوت يبتلع ، أم أفعى تلذع ؟ أهو دوى يصم الآذان ، أم هو فحيح يجمد الدم فى الأبدان؟ أهو موج يغمر، أم رمل يزحف؟ أهو جبل صاعد، أم جرف هاو ؟ أهو ظلام دامس ، أم ضوء باهر يعمى البصر . أم هو ضباب يعتم الرؤية ؟ أهو هذا ، أم هو ليس كذلك أم هو هذا وذاك معا ؟ كل هذا معا ، مهما كان الأمر ، فالأيام تمر وسيعرف لنفسه وبنفسه ما هو الموت حقا . أهو هيكل عظمى يمسك سيفا أو رمحا ، أم هو قريب حبيب ممن سبقوه الى الهوة؟

وجه عمته مريم النبيل ، وقامتها الفارعة ، وابتسامتها الحنــون مثلا ؟ ربت على رأس قطــه الراقد فى حجره ، فهو يعرف كل شق فى الحوائط ، وكل حجــر • يعرف كل ما خفى عن العيــان ودق ، لهذا فهو يطمئن اليه ويثق به •

انه ابن هذه الأرض العتيد •• ميو •• هذا اسمه منذ قديم •• فقد استؤنس منذ الأسرة الحادية عشرة •• ومن مصر انتقل عبر اليونان الى أوربا •• فهو اذن ابن بلد حقيقى •• لقبت النساء باسمه ولبسن فراه •• من أجل هذا الفراء كان يصاد فى البرارى التى عاش فيها • وفى مقابر البدارى وجدت بقايا الجثث ملفــوفة بفرائه الثمين •

انه يصاحب سيده الى دورة المياه وفى جـــولاته الداخلية المحدودة • يرقد تحت مقعده اذا جلس •• يبسط مخالبه ويخمش بها رجل الكرسى أو طرف عباءة سيده • ثم يقفز الى حجره طلبا للملاطفة • وقد كان للحكيم كونفوشيوس ، على ما يبدو ، أيضا قط مثل ميــو •

قل نوم صفوان • صار اغفاءة • يستيقظ بعـــدها متنبه الحواس مفتح العينين يقظ الجوارح ، مترقبا ، كما لو لم يكن قد نام قط • يقول لنفسه : النوم عادة فى أغلب الأحيان ويمكن مقاومتها والتغلب عليها ، فالجسد لا يحتاج الا الى كفايته ، أو الى أقل من كفايته بقليل • اذا داعب الكرى جفنيه قاومه • واذا ثقلا

رفض أن يطبقهما . انها جولته الأخيرة ، ولئن كان قد خسر كل جولاته السابقة ، فانه تكفيه هذه الجولة الحاسمة ، لو ربحها لــربح كل شيء ، كل شيء . لا يهم . كل ما فات لا يهم . كل ما ضاع يســترد بضربة واحــدة . كل ما راح من اليد يعود ، ويعود اضعافا مضاعفة . وما دام قد حقق انتصــاره هنا، فى هذا الركن الهادىء الصغير على مشارف الصحراء فقد حققه اينما كان فى هذا الوجود .. فى بعض اللحظات يهزمه سلطان النوم تماما ، لكن عزاءه فى تلك اللحظات أن قطه الأمين قابع عند قدميه ، على أهبة الاستعداد لايقاظه بموائه ، اذ لاحت بادرة على اقتراب العدو ، وعندئذ سوف يهب متسع الحدقتين ، متيقظ الحــواس كلهــا .

كانت جدته تخاف البقاء وحدها فى البيت ، لا لأنها كانت جبانة متخاذلة ، فهذه الريفية الخشــــنة ابنة الأرض والطبيعة العارمة ، وقد مرت فىحياتها السابقة بكثير من الشدائد رابطة الجأش . لكنها كانت ــ دون أن تقول ــ تخشى البقاء وحدها فى البيت عندما كبرت وتقدم بها العمر ، فقد كانت تتفادى الالتقاء باللامسمى دون أن يكون ثمة من هوالى جوارها . لهذا كانت ، عندما تتأهب ابنتها وزوجها للخــــروج ، أول من يرتدى ثيابه ، وتنتظرهما فى الصالة متأبطة حقيبة يدها السوداء بجوار الباب ،

حتى تخرج معهما ، وتخطو الى عتبة الباب قبلهما ، كى لا تبقى وحيدة بين جدران البيت التى قد تحتويها مع المجهول .

عندما يفكر صفوان فى حياته ويستعيد أيامه ينتابه احساس بأنه انما كان يصطاد فى بحر لا سمك فيه .. كان يلقى بسنارته وقد سمن فيها الطعم .. وعندما يخرجها لم يكن بها سمك .. ولكن أيضا لم يكن للطعم وجود . كان يذوب .. كان يتبدد .. يتلاشى .. دون أن يصل الى شيء .. ولم يكن هذا الطعم بالأمر الهين .. بل كان يكلفه أيامه كلها .. وهل كان لديه غيرها ؟ واذا استغرق فى تأملاته استبد به تساؤل لم يكن يجد له اجابة شافية .. كانت البوادر كلها توحى لحظة بعد لحظة بأن ذاك البحر مليء بالسمك .. كانت الفقاعات الصاعدة من جوف اللجة تومىء الى أن ثمة ما يتنفس هناك تحت السطح .. ولكن دائما كانت السنارة تخرج الى الهواء تهتز وتتأرجح خالية حتى من الطعم .. الذى ضاع .. كل مرة كان الطعم يضيع .. لكن هناك فى أعماق الصدر .. فى مكان ما تحت الضلوع .. هاتفا لا يهدأ .. وسـيمد يده ويمسك بها ويشعر بانتفاضتها فى قبضته ثم يقتلع الشص من فمها برفق قدر الامكان .. ليضعها فى السلة .. وستتلوها .. سمكة .. واخرى واخرى .. تلمع .. وتتلوى .. ، ثم تمتلىء بها السلة . لم يكن يألو جهدا فى الحصول على أفضل طعـم .. حتى يكون حظه فى الغد أفضل .. ولم يكن يتردد فى الخروج

مهما كان الجو باردا والفجر لم يكن قد زحف على الوجود النائم بعد .. ذات مرة .. مرة واحدة فحسب ... أخرجت سنارته سمكة صغيرة منتفخة سمراء مختلطة بخضرة قاتمة ربما من كثـرة احتكاكها بطحالب القاع .. فرح بها برهة .. لكن الى جواره كان يقف صبى ربما كان ابنا لأحد الصيادين . قال له : « ياه ، انها جعيرة .. لا فائدة منها ... الأفضـل ان ترميها من حيث طلعت .. » قلبها ودقق النظر فيها .. واستوقفناه على الأخص عيناها الجاحظتان .. لا يدرى لماذا صدق ذلك الصبى .. فطوح بالجعيرة بعيدا الى البحر من جديد .

« تعبنا طوال الليل ولم نصطد شيئا » كان هذا هو الماضى .. ما وراءه .. لكن كل هذا ما عاد يعنيه الآن .. انه ينتظر اللحظة الحاسمة .. الصيد الكبير . . وأى صيد أكبر من اثبات ذاته .. انه سيفوق كل الآخرين الذين كانت حياتهم مكاسب وانتصارات .. لأنه .. لأنه ماذا ؟ هل حقا .. سيلتقى به .. ويقتنصه ، قبل أن يغرق قاربه .. ويغوص الى القاع المظـلم ؟ ذلك القاع المظلم لا يعنيه .. سواء كان قاعا أو لم يكن .. مظلما أو مضيئا .. ما بعد تلك اللحظة هو خارج حساباته وتوقعاته .. عندما تتوقف الحواس .. بعد أن تتوقف الحواس .. لا يعنيـه الأمر .. فهو يعرف انه عندئذ قد انتقل الى نطـاق المستحيل .. أما تلك اللحظة المرتقبة .. فهى لا زالت فى حيز الممكن .. صحيح

انه الممكن صعب المنال •• ولكن على أى حال •• لا يعتقد انـه متعذر المنال •• وانما يعتقد ان الأمر لا يحتاج الا الى احسـان استخدام تلك الحواس •• رباطة الجأش •• التحديق فى الوجه مباشرة وعدم الاشاحة مهما كان الأمر •• ولا شيء غير ذلك •• انه يكاد يعرف انه ليس له سوى هذه اللحظات •• وعلى الأخص اللحظة الأخيرة يجب أن تكون له كلها •• كلها له •

كلما سأل صفوان عن الأمر فى شبابه ، قيل له ليس فى مقدورك ، ولا فى مقدور أحد أن يعرف • كان لا يرتضى هذه الاجابة ، ولا يقنع بها ، بل يتمرد عليها كثيرا • يشد من أزر كل نبأ تطلع به الصحف عن تقدم علمى أو اماطة اللثام عن خبيئة من خبايا الطبيعة • فكان يحدث نفسه قائلا « ما من خلاص للانسان سوى العلم » ثم يقول لنفسه متحسرا « لكننى لست من العلماء فى شيء » • ثم يستطرد قائلا لنفسه أيضا ــ فقد كان يخجل من أن يجاهر غيره بذلك ــ « ولكن من هو العالم الحقيقى ؟ أهو من حشا عقله بالكثير من المعلومات ؟ أهو من حصل على الشـهادات تلو الشهادة ؟ كلا ، انه من يرفض ما ليس عليه اثبات ، ويضبط سلوكه على الملاحظة ، والتأمل ، فلماذا لا يكون عالما بالروح ، ما دام ليس عالما بالفعل ؟ » العلم تجربة انسـانية يواجه صاحبها ما فى الوجود من غموض ليفضه ، لا يأخذ شيئا على عـلاته ، وبشغف يعانق حتى عدوه • وهو اذ يفعل لا يسأل ما الجدوى من

أن يعرف • انه يعرف لذات المعرفة فحسب • كان يقول لنفسه مشجعا « الآن ، هناك ، عاليا ، عاليا ، ربما كان رائدا يجوب الفضاء ، يطوف النجوم ، بلا وجل أو تردد ، فلماذا لا يشاركه المغامرة ، من كرسيه هذا ، ومن غرفته ؟ » ثم يبتسم ويقول لنفسه « البعض يموت على خشبة المسرح ، والبعض يموت فى مقاعد المتفرجين » •

كانوا يقولون له الحواس عقبة ، والحكمة والحقيقة والكرامة الانسانية انما تتأتى من تعدى الحواس ، من قهرها وعدم الخضوع لسلطانها • كان يقول لنفسه « بل بالحواس ندرك الملموس •• وغير الملموس أيضا » فالأطياف مثلا بعض الناس يعاينها ومن الناس من يلتقط الهواتف أيضا • والصواب ان الحواس بحاجة الى أن تدرب فاذا ما بلغت أقصى درجات التدريب فانها تستحوذ على الكثير مما يغيب عن الآخرين • وبالتركيز والاستغراق ، بالخضوع للحواس والغوص فيها حتى الأعماق ، تتحقق المعجزات الصغيرة ، تلك التى يسميها البعض استخفافا بالمصادفات أو الخدع الصغيرة • وليس التعرف على كنه الموت بالمعجزة المستحيلة لأنه تجربة مألوفة وفى متناول اليد كل يوم ، لكن ما فى الأمر ان الاصابع بدلا من أن تطبق عليه ترتخى وتدع الحقيقة الباهرة تفلت مثل حفنة من الرمال •

تلك اللحظة سيستحوذ عليها ، ستكون له ، له وحده ،

سيقتنصها كلها بحواسه . حقا ، هو يعرف انه عندما ستنطفىء حواسه ، عندما سيطبق عدوه ويشدد قبضته على عنقه لن يكون حتى لحواسه وجود ،بل سيكون وجوده الماضى كأنه لم يوجد قط . فبعد ذلك تأتى الغيبوبة الطويلة الأبدية ، ولا يأمل أن تتيح له تلك الغيبوبة أن يعرف شيئا . انما الفرصة الوحيدة العزيزة الغالية ، فرصته هى تلك اللحظة الانتقالية بين الحياة واللاحياة .. هو لا يعول الا على لحظة الانتقال .. قبل أن ينهمر الطين ويهال التراب ويطمس كل شىء .. ان الشىء المؤكدبالنسبة له .. الشىء الذى يتوق اليه .. لا كمجرد أمنية بل كهدف يسعى اليه ، هو أن يقتنص فى لحظة حواسه الأخيرة ـ يقتنص غريمه ، يمسك بتلابيبه ، ويطوقه بذراعيه ، حتى لا يفلت منه .. يريد أن يعيش التجربة الى آخر رمق .. وستكون هذه معرفته القصوى والأخيرة .. التى ستجعل لكل حياته الخاوية معنى ومضمونا .. انه يمضى مثل دودة القز الى الشرنقة .. ينسج خيوطها حوله عن طيب خاطر .. حتى تغطيه ، وتعزله ، وتكتم أنفاسه . وهو الآن انما يفرز الخيوط من حوله .. لتنغلق عليه .. ويجتمع بغريمه ـ بغريمه المتلهف اليه ـ داخل الشرنقة .. انه ينتظره لحظة تسلله وهو له بالمرصاد .. وربما كان كل حماسه للحياة فى هذهاللحظات لا للحياة ذاتها ، بل للمتعة الكبرى ، للكشف الأكبر ، للمغامرة الكبرى .. للفوز بما لم يفز به غيره .. ربما .. بل وما الذى

يعنيه غيره فى هذا المقام ؟ لا يريد صفوان سوى التجـــربة المباشرة •• اليقين •• ولا يقنع بغير ذلك بديلا •• مهما كلفه الأمر من ثمن •• وأى ثمن يضاهى لحظة التنوير العظيمة المهولة ، لحظة أن يعرف بنفسه ولنفسه ، الى ما تسير الحياة ؟ ان العمـــل فى الواقع كثير والفاعل مستحق أجرته •• عديدون غيره من الجهابذة أفنوا الساعات الطوال فى حذق النظريات البليغة والافتراضات حول هذه اللحظة ، لكنهم داروا حول تلك اللحظة فحسب ، من الخارج دائما ، سطحيون دائما ، أما هو فربما •• مثل دودة القز •• ربما •• من يدرى •• ؟ من يدرى ؟ هو بالقطع يدرى ، فالمستقبل من صنع تطلعات الحاضر الطموح المتأججة بالحماس ، وما من أحد يتأجج حماسا مثله • ويمكنه أن يقول لذلك بأنــه أكثر تدينا من كل أولئك المتدينين الذين يطمعـــون فى ثواب الآخرة ، أو يدرأون عن أنفسهم عذابها فحسب • انه لا يخشى شيئا ، لا يطمع فى شىء ، انه حر •

أبعد الأمور عن الظن قد تكون أقربها الى الوقوع • صدئت المفاصل فلم يسرع صفوان الى تزييتها ، أصبح يعول كثيرا على صرير الباب اذا ما فتح، فهذا الصوت فى هدأة الليل كفيل بالتنبيه الى أى وافد غريب، متلصصا جاء أو متسترا تحت جنح الظلام • سيضغط صفوان عندئذ على زر النور ، فتضىء الغرفة بالنـــور الساطع ، ويرى الصديق المنتظر وجها لوجه • وفى الضوء الباهر

الذى يهتك الأسرار ويفضح الغوامض والخفايا ، كان موقنا انـه سينال مأربه ، ويتوصل الى ما لم يتوصل اليه انسان آخر من قبل . ويا له من فتح أو اكتشاف سيكون هذا ! أعظم الأسرار سيفضه ، حتى لو احتفظ به لنفسه ، فسيكون ذلك النصر قمة حياته ، والغرض الأصلى من وجوده واستمراره . انها لعبـة تستحق كل ما يكرس لها من فكر وانتباه ، ويقصى عن كاهله فى سبيلها كل انشغالات أخرى .

ولأنه لا يريد التجربة الا لنفسه ، لا يريدها الا فى ملأتها وكل حرارتها ، فهو لا يمسك ورقا ولا قلما .. بل يهىء وجدانه وذهنه بل وحواسه على الأخص ، للاستقبال والتلقى .. لا يدون شيئا .. يريد أن يرشف الكأس حتى الثمالة ، ثم فليقع بعد ذلك على الأرض ويتكسر . ليضح الوجود حطاما . وليتطاير ذرات ذرات .. فلن يعنيه من الظواهر شيئا .. سيصبح أثرا بعد عين .. فليصبح . وماذا يعنيه ذلك ؟ ألن يكون محورا ، قطبا ، جسـما موصلا .. وسيطا .. نجما ؟

سمع ان بعض الجامعات الأجنبية أخذت تهتم برصد الظواهر العابرة والظواهر غير المبررة وغير المفهومة ، تمهيدا للتوصل الى القواعد التى تحكمها .. مجرد احتمال ضعيف أن يكون للمصادفة البحت ، مثل توارد الخواطر ، قانون يضبطها .. يتوق ان يعمل باحدى هذه الجامعات فى قسم من الأقسام المكرسة لاستقصـاء

هذه المصادفات والاحتمالات . واذا كان غير حاصل على درجات جامعية فى مثل هذه الأمور ، الا أن الاسهام فيها لا يحتاج فى نظره الى شهادة بل الى حدس من نوع معين ، وارهاف للحواس، صبر لا حدود له فى انتظار اللحظة المواتية .. ان الوهج البراق يلمع فى لمح البصر ، وينطفىء أيضا فى لمح البصر لا تلتقطه سوى عدسات انسان من نوع خاص ، وهو انسان من هذا النوع ، وقد مضى يدرب نفسه لمثل هذه المهام . ولم يبق الا انتظار الضيف المفضال . وهو لن يتأخر الآن

ثمة صوت يهمس الى صفوان بأن ما يجرى من حوله لايمكن أن يكون نهاية بذاتها ولذاتها ، كل هذه التجهيزات انما هى فى الحقيقة لبداية الرحلة .. ربما خلال ضباب كثيف .. ان النهاية التى تعطى لكل شىء منطقا ومعنى ، تقترب .. تكاد تلوح له .. عندما كان صبيا كان يمد يده فى زكيبة بائع البخت الواقف عند باب مدرسة العطارين الابتدائية . أصابعه تسعى فى الفراغ المظلم داخل الجعبة متلهفة متخبطة بحثا عن ورقة مطوية .. لا يعرف ماذا بداخلها . ربما غويشة ، مليسة ، مبراة ، أو غير ذلك من أشياء تافهة .. لكن أصابعه بل ووجوده كله ، يسعى أيضا هذه المرة باحثا عن ورقة مطوية ، لن يكون ما بداخلها شيئا تافها ، أو هكذا لابد أن يكون الأمر، بل انه شىء خطير مطوى عليه .. هو

السر الذى سيضع كل الحقائق الجزئية فى نصابها الصحيح ••
هو الطلسم الذى يضبط ايقاع كل شىء •

هل التقى صفوان بالموت قبل ذلك ؟ يذكر عندما كان صغيرا •• فى العاشرة من عمره •• كاد يغرق فى النيل يوم شم النسيم •• كان يلعب على الحافة الطينية •• رأى على مبعدة فى الماء اباه وصحبة من رفاقه •• خطا بضع خطوات •• وبعد ذلك وجد نفسه يهبط فى اللجة •• يهبط •• الألوان من حوله سهام متوحشة •• لم يحس بالخوف آنذاك •• بل انتابه استسلام مهول •• وهو يغوص •• يغوص •• الى القاع •• ولكنه فى الحقيقة انما كان فى طريقه الى الالتقاء بلحظة الموت الحاسمة ، انه كان يقترب منها فحسب •• واذا بيد قوية تنتزعه من شعره وترفعه الى أعلى •• وتخرجه من الماء •• ولم تكن أنفاسه قد اختنقت •• ولم يكن قد بدأ يضيق عليه الخناق عذاب الغرق ، ويقال انه أصعب أنواع الموت •

جال صفوان ببصره فى أرجاء غرفته يستعرض استعداداته واستحكاماته ويطمئن الى كمائنه ومصائده وأجهزة انذاره وتنبيهه الى كل همسة مهما خفتت والى كل خطوة مهما خف وقعها • ثم مال يربت على ظهر قطه الوفى الحريص •• بدائية هى استحكاماته ومصايده ؟ صحيح هذا ، ولكن يجب أن نحارب بكل سلاح •• فقد لا يصلح مدفع رشاش بين يدى جندى

غشيم فى قتل العدو ، بينما يكفى لذلك خنجر مسنون أحسن استعماله ، فالانسان لا يحارب بأمضى الأسلحة لزاما ، بل بما بين يديه من أسلحة ولو كانت أقل كفاءة مما يرجوه • وسيستفيد صفوان بكل امكانات سلاحه المتواضع ، وهو موقن بأنه ليس متواضعا ، بل انه صالح كثيرا لالتقاط المصادفة •• ها هو جهاز التسجيل ، ها هو مكبر الصوت ، ها هى أزرار الاضاءة •

ثم جاءت الساعات الصعبة • ثقلت الأنفاس ، وأصبحت أكثر عناء • الدماغ خاوية ، والدوار يقفز الى الرأس بمجرد الوقوف على القدمين • صار الاستناد الى العصا ضروريا الآن، والسير على ثلاث حال كل يوم • والنبضات تسرع ويصحبها اللهاث • تضع أم نوال خلف ظهره وسائد كثيرة حتى يسهل عليه التنفس • كره السرير • لاذ بكرسيه • يمضى الليل مسمر العينين على زجاج النافذة • يترك الشيش مفتوحا حتى ينسكب الى الغرفة ضوء الفجر ما أن تبزغ الشمس كل صباح • أما الزجاج فمحكم الاغلاق على الدوام حتى لا تتسرب الرطوبة الى المفاصل الموجوعة • لم يعد الرجل العجوز يفتح فمه • وانصرف بكل جوارحه للوافد المنتظر • وكلما تضاءلت قواه كلما زادت يقظته وانتباهه الى ماحوله• كما زادت الفته بالصديق المرتقب أيضا•تمنى فقط أن تكون حواسه كما كانت فيما مضى ، عندما كان يرتقى شوارع كوم الدكة الصاعدة الهابطة ويمشى على قدميه فى اصبحة

الشتاء المشمسة من محرم بك الى سيدى جابر متلقيا هــواء البحر على وجهه ورئتيه . من هو الحكيم الذى بدأ حياته حيث تنتهى حياة الآخرين ، الذى ولد أشيب الشعر .. عجوزا .. من ذلك الحكيم ؟ من هو ؟! ما عاد يذكر .. كل شيء انطفأ .. شعر كما لو كان ممسكا به بين فكى كماشة فولاذية ، فلا يستطيع حراكا .. للمرة الأخيرة ، يريد أن يصمد .. يرفع جذعه الآن بعناء ينجح فى الوقوف على ساقيه بصعوبة بالغة وفى الســـير خطوة أو خطوتين ، وكذلك ذراعاه يحركهما بمشقة ، كل شيء بمشـــقة . شيء واحــد لم ينطفيء .. اليقين بلحظة اللقاء . لماذا لم يمت قبــل ذلك عندما كان وعيــه أصــفى وأشــد ؟ أهذه من الأعيب الصديق اللدود أيضا ؟ أن يضعفك ، حتى اذا ما جاءك وجدك وقد غلبك التعب وهدك ، فلا تكون بقادر أن تتنبه اليه ؟ هل يأتى كلص فى جنح الليل ، متسللا ؟ يعيــــد العجوز التأمل فى الأمر تبعا للظروف التى يجد نفسه قد انجرف اليها ، لكن الشيء الذى لا يتزعزع هو الرغبة العارمة فى أعماقه أن يصمد .. عارفا ان الصديق الوافد المنتظر هو الذى يطرد عن الحياة كل ما تكتسى به من عبث وسخف .. انه اذن صديق حقا .. ولا يجب أن يقابل باستكانة وبلادة . على أنه يجب أيضــا الا يبلغ بالمرء الغباء مبلغا فينخدع أو يخدع نفسه به .. ربما كان الشيء الوحيد الذى يجب أن يقابل به .. الشيء الوحيد الذى

لا يجده فينا غالبا .. كبرياء يتشبث بها .. ان ننظر اليه بعيون مفتوحة .. مهما كان منظره بشعا قاتما .. ولكن من يدرى ما مظهره .، طالما نفضل ان نغمض العيون ونصم الآذان .. ونكز على الأسنان ؟ لا يموت الانسان بالصراخ والهلع فحسب ، بل بالبشاشة والتفتح أيضا يمكن أن يموت .. الأمر يجب أن يحمل محمل الجد .. وقد كان هو جادا مهموما كل ايامه السابقة .. فما كان يعتقد أن كل ما يجرى من حوله سريعا كدوامة ، بطيئا راكدا كمستنقع خاتمة المطاف ..

حاول أن يرفع يده ، أن يحرك ساقه ، أن ينهض .. أن يعلو صوته بالصياح .. لم يبق له شيء .. انكمش الوجود كله .. وتضاءل حتى صار بذرة .. بقعة صغيرة من الضوء الباهت على السقف . ما عاد يرى شيئا آخر .. تسمر يحدق فى تلك البقعة من الضوء على السقف .. حتى لمعت عيناه . ما عادتا تطرفان . صارتا كقطعتين من الزجاج البارد جاحظتين فى مقلتيه .. دبت البرودة ، سرت فى كل شيء .. الوجود يغرق .. يغرق .

لم يدق الباب سائل عن العجوز الوحيد .. لم تمتد يد تسدل الجفنين على العينين المحملقتين فى السقف بثبات .. اللتين ظلتا تحملقان فى السقف بثبات أياما وأيام . وحتى ميو لم يتلق من سيده الحبيب اجابة على موائه المتكرر فى استجداء .. لم تربت يد على ظهره ورأسه . لم يداعب اذنيه أو يحك ذقنه أحد..

خلا الصحن من اللبن.. ونضب الماء فى الآنية وفى الحوض أيضا .. ولم يعد فى البيت المهجور مايشبع لدغات الجوع فى البطن الضامر المكسو بالفراء الأسود اللامع . جال الحيوان الأليف حول سيده الراقد مستفسرا . تمسح فى قدميه تحت الغطاء ، بل فى جسده كله . لعق جبينه وخديه .. فلم تستجب الجثة المسجاة لتوسلات المخلوق الأليف الذى مضت عضات الجوع تنهش أحشاءه . جال القط فى أرجاء الشقة عله يجد منفذا يفلت منه الى الخارج .. خبش باب القبر بمخالبه .. قفز الى النوافذ .. كل المنافذ مسدودة .. زاد مواءه عذابا .. القبر محكم الأطباق عليه .. عاد الى سيده يتشممه ويتشممه .. يبتعد عنه ثم يعود فيقترب .

كان ابن أم نوال قد استدعى للخدمة العسكرية فشغلت به وانشغلت عن مخدومها أياما . صعدت السلم وطرقت الباب .. لم يجبها من الداخل أحد . زادت الطرق دون اجابة .. توجست خيفة وأخذ الشك يأكلها . نادت على سيدها ولا اجابة .. دعته أن يفتح .. سألته ما به .. لا اجابة .. التفتت تطرق باب الشقة المجاورة .. رأت التراب المتراكم عليها .. تذكرت أن المدرس وأسرته رحلوا الى الكويت فى اعارة .. هرولت نازلة الى الدور السفلى .. عادت ومعها بعض الجيران .. عاودوا الدق .. ثم

تحفزوا لكسر باب الشقة .. فقد تيقنوا أن العجوز قد أصابه مكروه ..

انكسر الباب .. اندفعت أم نوال الى الغـرفة .. القط الحبيب .. تقوس ظهره .. ونفر شعره .. واندس ذيله بين ساقيه الخلفيتين .. كشر عن أنيابه .. اندفع يموء مواء شرسا .. كأنه يدافع عن سيده .. يحذر من الاقتراب أو المساس به .. انه سيده هو ، وصاحبه هو وحده .. استطاعت العيون أن تفلت من سحر العينين الصفراوين المستديرتين وتنحرف .. جثة صفوان منهوشـة البطن والعنق .. انطلقت الصرخات والصيحات .. خطفت النسوة صغارهن فى أحضانهن ، ولذن بالفرار .. التصقت أم نوال بالحائط تغالب الدوار .. وقد امتلأت نظراتها بالرعب لمرأى سيدها والقط الذى أصابه السعار وسال من أنيابه اللعاب .. لم تستطع المرأة أن تذرف دمعة وداع على سيدها ، ولا حتى أن تندبه بكلمة طيبة . جف حلقها ، بح صوتها ، ونضبت مقلتاها . رائحة الجيفة أصابتها بالغثيان . رمقها القط الحبيب بنظرات عدوانية ضارية لم تخل من الخوف والتوجس .. عيناه مثل بركانين ملتهبين بنار مستعرة فى أحشائه .. ثم مرق بجوارها الى الباب خارجا .. كان ضخما مثل جبل أسود غطت تربته شجيرات حسك وشوك متشـابكة الأغصان .. وبخطوات خرسـاء متلاحقة مضى ينزل درجات السلم . وما ان اختفى من أمامها عجزه وساقاه الخلفيتان

وذيله الذى بدأ كعصا سوداء غرست فيها مسامير مدببة غزيرة ..
حتى هرولت بدورها خارجة ؛ تبحث عن أول شرطى تبلغ ان
سيدها مات .. انسانا مات .. حدث صغير واجراءات .. تاركة
وراءها الغرفة على ما هى عليه ، غارقة فى الصـــمت والظلال
المنعكسة على قسمات صفوان التى تشوهت .

الجسد الآخر

* بدأ الأمر بمجرد فضول عادى ، مشوب بقدر من عدم الاكتراث . ثم زال عدم الاكتراث ، ودب فى فضولى لهفة ، ورغبة حارقة فى المعرفة ، مثلما تستهويك كلمات متقاطعة أو « فزورة » تسمعها ببساطة أول الأمر ، ثم تملأ عليك ساعاتك ، بل ربما حياتك كلها : ما هو الحيوان الذى يمشى فى الفجر على أربع ، وفى الظهيرة على اثنتين ، ثم فى المساء على ثلاث ؟ .. شىء من هذا القبيل ، ولا شك . بعد ذلك تحول فضولى الى اهتمام حقيقى ، كأن شأنه هو شأنى . كل خصوصياته أصبحت خصوصياتى . اذ ما شرعت أظافره تحك فهو جلدى الذى تحك. واذا تثاءب فهما فكاى اللذان ينفرجان وأسنانى هى التى تبدو صفراء . أما لسانه فقد تراكمت عليه طبقة بيضاء من لعابى أنا . فضول ، ثم اهتمام ، ثم انشغال وجزع . بل وعناد أيضا كى أعرف وأطمئن ، وكلما عرفت انجرفت الى مزيدمن القلق . ماذا

سوف يحدث ؟ ماذا لو رحل ، أو مرض ، أو مات ؟! هل سيحدث لى ما حدث له ؟ أمصيره هو مصيرى ؟

مع الوقت ازداد التصاقى بالحائط ، فازدادت حصيلتى من الأسرار والتفسيرات . كلها فروض واحتمالات . لا شيء محقق، مادامت غلالة الأسمنت هذه موجودة .

ولكن هو بدوره من وراء الحائط الحجرى ، لا شك ، يسمعنى . أعتقد انه ينصت باهتمام الى أشجانى وهمومى ، الى مأساتى . ألسنا فى حجرة واحدة . وماضى هو حاضره ، وحاضرى هو مستقبله ؟!

غرفة واحدة كبيرة ، قسمت قسمين . هذا مؤكد ، فلا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك . وكيف يمكن أن يكون ، وأنا أعاين هذا الامتداد . وهذا التكرار والتتابع . وتفد الى الاصداء التى تتردد هناك ، هناك فى الغرفة المجاورة ، فى الغرفة الملاصقة التى لا أراها ؟ ربما كنت قد رأيتها يوما ، أكاد أجزم ، لولا هذه الغشاوة التى تغيم على بصيرتى ، ذلك الضباب الذى يعتم دخيلتى ــ أكاد أجزم بكل قطعة أثاث فى تلك الغرفة ، وكل رسم على حوائطها ، وكل ركن من أركانها . أكاد أتخيل كل حركة فى تلك الغرفة . وأسمع ، أسمع . هذا مؤكد ، أنى أسمع . وهل أستطيع أن أكذب أذنى ؟ هل يجرؤ أحد أن يكذب أذنى ؟ انى على استعداد أن أقتله ــ كما قتلت من قبل ــ فهذا هو يقينى

الوحيد ، ايماني الذى أحيا به • أحيا ؟ لست دقيقا فى كلماتى • اللغة لا تسعفنى ، فالواقع شىء ، وما يجرى على اللسان شىء آخر • اللسان أول ما تأكله ديدان الموت • بلســانى ماعدت أتكلم • لكنى أحاول أن أكون قدر الامكان دقيقا ، صادقا بقدر ما هو مقدور عليه من الصدق • وهل يمكن أن يكون الكلام صدقا ، بينما لا يبين من الحقيقة الا النصف أو أقل ؟ أجل الصوت ايماني الوحيد ، يقيني الوحيد ، حقيقتى الوحيدة • انى أسمع فى صمت هذا الوجود كل همسة • كل تنهيدة ، وكل زفرة ، فى تلك الغرفة المشئومة الحبيبة ، فى متناول سمعى ، كأننى أنا الذى زفرت ، كأننى أنا الذى تنهدت ، كأننى أنا الذى يرزح على صدرى حجر ضخم ، كأننى أنا الذى فى الغرفة الملاصقة ، التى يفصلها عن غرفتى هذا الحائط الأصم الصامت المتحدى الذى يمور بالهمهمات والأسرار • وقفت أمامه ، وقبضتى مقفلتين ، مضيت أدق عليه دقا خفيفا ، هنا وهناك ، مصغيا الى اصداء دقاتى لأتبين ســمك ذلك الجدار • وكم كان رقيقا ! لم يكن حائطا • ستار هو ، بارافان ، زايلنى الاحساس بالوحدة • اننى لست بعيدا عن الساكن خلف ذلك الجدار •

الليلة الخامسة ، سمعت وقع خطوات هناك • اذن ، ثمة انسان الى جوارى ، حى !! اقتربت من الحائط قدر الامكان • ألصقت صدغى به • أحســـست أنفاسى على السطح البارد •

مضيت أنصت ، وقد استبدت بى الدهشة والارتباك • دغدغتنى لهفة مشوبة بالفرحة والخوف • ترى من هناك ؟ أكنت قد أخطأت؟ ألم تخنى أذناى ؟ الخطوات تسمع بوضـــوح • فى صدرى ، اندست قبضة حنون قاسية اعتصرت ما كان يوما قلبى •

لم أستطع الرقاد الليلة • كنت أستيقظ من وقت الى آخر • أنهض ، وأرهف السمع ، فى الظلمة ، أتلمس الوجود الانسانى بجانبى • أخوض مستنقعا من الصمت راكدا • ينهال السكون على كل شىء • دبيب خطواته ، أين ؟ الصمت على الرغم منى يطمر كل شىء •

فتحت ألبوم الصور • كنت أسأل البواب ، وأشير الى الغرفة المجاورة • قال البواب « تسأل عن جارك الجديد ؟ » ابتسامة خبيثة ، ولا اجابة • ثم استدرك يقول « مثلك ، مقطوع من شجرة » أدقق النظر فى الألبوم • أصعد السلم عدوا الى حجرتى • جرجرت ساقى ، والتصقت بالحائط • مالبث أن فتح باب فى الغرفة المجاورة ــ اذن ، لها باب ــ ثم أغلق • دقت ساعة حجرية هناك بعيدا ، فى مكان ما ، بالخارج المظلم البارد • الســاعة الثامنة •• زمن ! وما جدواه ، هنا ؟ أصبحت أعرف ميعاد عودته فى المساء ، أو ما يخيل الى أنه المساء ، فقد أصبح لى مسائى وصباحى الخاصين بى • وهما من صنع أذنى ، الآن • الباب يفتح ثم يقفل فى الصباح ، ويخيم السكون • ثم الباب

يفتح ويقفل فى المساء • ثم تدق الساعة النائية فى الخرائب المهجورة • أصبحت أتكوم بجوار الحائط كل مســاء ، عند سفحه أنتظر ، أنتظر عودته ، من أين ؟

ما من خطوات هناك سوى خطواته • هل لى أن أستنتج منها بعض الاستنتاجات ؟ هو وديع ، يتحاشى الجلبة • لولا تلك الخطوات الثقيلة لقلت ان الغرفة خالية • الخطوات راسخة ، ذات ايقاعات رتيبة وئيدة • يبدو انه من ذلك الصنف الذى يعرف كيف يتخذ قرارا ، ويمضى فيه ، بلا توان أو ندم • بعد فترة وددت أن أتعرف اليه ، أن ألتقى به ، أن أراه ، لكن كيف يتأتى لى ذلك وقد حوطونى بكل هذه الأسوار ؟ كم يتوق المرء الى مالا يطوله !

نظرت الى الألبوم ، أسير جيئة وذهابا أمام العمارة ها هو رجل ، نحيل ، طويل ، نظراته ساهمة غير مكترثة • على شفتيه انطبعت التواءة طفيفة • اختفت هيئته فى العتمة • كانت انحناءة كتفيه تشبه انحناءة كتفى تماما • وصل كل منا الى باب حجرته • بابان متقاربان لا يفصل بينهما سوى مترين • دخل كل منا وأغلق خلفه الباب • دلفنا الى غرفتينا اللتين يفصــلهما حاجز رقيق من الأسمنت •

بعد قليل، على الرغم من اننى كنت موثقا بأربطتى وأقمطتى، سمعته يتحرك مثلما حدث فى المرات الأخرى خلف الجدار ، لكن

فى خيالى ارتسمت قسماته ، كما لمحتها وهو واقف تحت مصباح النور . وجه كاب ، سحنة متجهمة ، وكم كنت أحس به وأفهمه . كم كنت أقدر كراهيته للبشر ، وان كنت لا أعرف حياته ، وربما مأساته . لا بد أن أمرا جللا حطم حياته بدوره . ومع ذلك كان يمضى فى الحياة . كان لديه أمل . أمل ؟ فى ماذا ؟ أم انه مثلى يتمنى أن تأتى النهاية ، أن يأتى الموت ــ دون أن يقدم هو عليه ــ ويضع فى هدوء ، خاتمة لكل شيء ؟ لكن من كان باستطاعته أن يجيب على هذه الأسئلة ؟ ثمة ما هو مؤكد ، على أى حال ، انه صوت الملعقة ــ أو ربما كانت شوكة أو سكينا ــ تقع على الأرض ، رنة تمضى مبتعدة تتلاشى تتلاشى ، تتلاشى ، مثل دوائر فى الماء من جراء سقوط حصاة . ثم مرة أخرى ، يخيم الصمت ، كأن ما من صوت كان هناك . ولكنه شيء محقق ، ذلك الصوت . ذلك الرنين ، أراهن اننى سمعته . أقطع يدى لو لم أكن قد سمعته ، ولكن ماذا يعنى ذلك ؟ الكثير . الحياة لا زالت لها الكلمة الأخيرة . كان جارى يتأهب للأكل . ومن يعاند الجوع ؟ من ؟!

عيش وجبن ؟ لحم مقدد ؟ زبد وعسل ؟ فول ؟ بصل ؟ بيض مقلى ؟ قرع مسلوق ؟ عيناه لا ترفعان عن الطبق . أتصور ذلك . أكان أتخيل أيضا الأثاث فى الغرفة المجاورة . دولاب كلما فتحه اصطدم بابه بالحائط . لا مجال للخطأ فى

ذلك • الصوت يكفى للتثبت من وجوده • وسط الغرفة ــ أكاد أقطع بذلك أيضا ــ منضــدة ، يجلس اليها جارى كلما تناول طعامه • يؤكد ذلك صوت الأطباق والملاعق الذى يفد من بعد معين ، وارتفاع لا يتغير •

خطوات تسير • خطوات تتوقف • زحزحة مقعد • ثم رنين أدوات معدنية وصحاف • ألا يكفى هذا للاثبات ؟ ولأمض الآن معه ، أعايشه • وجه مكتئب ، منكس فى الطبق • أسنانه تمضغ الطعام بفتور • حركات النواجز والفكين بطيئة ، سقيمة •• لست وحيدا فى هذا الوجود مترامى الأطراف • ــ أو ربما يخيل الى ــ انى لست وحيدا ، لست وحيدا تماما • من وراء الحائط الذى يشطر غرفتنا الكبيرة الى غرفتين بينهما سور واه ؟ من يلوح بيده ، ويشد من أزرى ؟ وهل أنا بحاجة الى ذلك ؟ كلا ، لكن، مجرد الشعور بالمشاركة هو الذى يعنينى • وياله من وهم ، شعور زائف بأنك لست وحيدا ، أمنية عذبة مثل مخدر ، ممضة مثل مسمار دق فى ظهرك • ولكن الآخر ، ألا يشعر بمثل هذا الشعور، وهو يسمع بدوره ــ ألا يسمع ؟ ــ من خلف الحائط خطواتى وحركاتى ؟ أم ان الشعور هو شــعوره ، وأتخيل اننى أشعر شعوره نحوى • خطواته تبتعد ، ومعها قلبى يغوص فى صدرى، أو ان شئنا الدقة فى التجويف الذى كان ذات يوم صدرى •

نظرت الى ألبوم الصور : ها أنا أجلس الى منضدة • الغطاء

قماش ذو مربعات حمراء وزرقاء • أمسك ملعقة ، أغمسها فى الحساء ، والمنشفة البيضاء مبسوطة على صدرى • البخار الحريف يصعد من الطبق الى وجهى • كانت تلك أيام العز • كان كل شيء ميسرا ، لكن الزمن راح لحاله وانقضى • الأيام والليالى ، والأصبحة والأمسيات ، كلها مرت رتيبة كئيبة فاترة • وعلى الرغم من أن حياتى بدت سائرة على نمط واحد ، الا أن ثمة شيئا كان يتأكد فى ، وأنا قابع عند ذلك الجدار أتسمع ما يأتيه جارى من حركات وسكنات • صور أحبائى ، صور أولئك الذين غرسوا فى جسدى الأشواك ، أولئك الأحباء الذين أدموا جبينى وعنقى وصدرى وجنبى بحرابهم المسنونة — صور هؤلاء جميعا نحيتها جانبا ، وأصبح ذلك الجار الذى أسمعه يتحرك وراء الجدار شغلى الأوحد ، أصبح مجسما ، يملأ وقتى كله • أتعقب ما يصدر عن غرفته — غرفتى ، غرفتنا — من أصوات •

وعلى الرغم من أننى كنت فى صحبته كل وقت ، حتى أصبحت حجرتى هى حجرته ، فتداخل الحيزان ، وليس أحدهما الآخر ، مثل علبة كبريت وغطائها — على الرغم من ذلك فقد وددت أن ألتقى به ، أن أجلس اليه أستمع له يحكى لى — وأحكى له — مأساته ، التى يخيل الى أننى أعرفها ، أكاد أعرفها • ليست غريبة على • رجفة فى دمائى تقول لى ذلك • كان سيحس بى ، أفضل من أى أحد غيره • أليس مصابنا واحدا ؟ أو على الأقل متشابها ؟

ولكن ثمة شيئا يفصل بيننا ، يفرق بيننا . الحائط ؟ بالطبع هو حائط ينتصب مثل حارس يباعد بيننا ، ولكن ذلك الذى يفصل بيننا حقا ليس هو الحائط الذى يفصل بين الغرفتين ، فهذا مثل سائر الحوائط المادية يحجب كينونة كل منا فحسب . أما مصيرنا فيحجبه حائط آخر ليس من طوب وجير وأسمنت ، حائط لا تقدر عيوننا أن تبصره ولا أناملنا أن تلمسه . ولكننا موقنون من وجوده قدر يقيننا بانفصام أحدنا عن الآخر . حائط يبنيه كل منا حول الآخر . يوضع حجره الأساسى منذ الولادة . حتى اذا ما جاءت اللحظة وانطفأ القنديل كان هـذا الحائط قد اكتمل ، وانتصب عاليا ، عاليا ، محوطا ، فلا يدرك ما وراءه الا من خلال فروض وتكهنات تثير الرجفة ، فهى مجرد أصوات مبهمة غير محددة ، يكتنفها الغموض وكلام كثير ، كثير ، ولا يقين . حوائط تخفينا وتحمينا . أكاذيب كبرياء واستجداء . كان على أحدنا أن يهدم هذا الحائط العتيق . ولكن من منا يبدأ ؟

حاولت أن أهدمه أنا . ذات ليلة ركزت كل قواى الذهنية. تخيلت اننى أنزل وأصعد درجات السلم ، آملا أن التقى بجارى. سوف أحييه ، وربما تكلمت اليه . كان البواب غائبا تلك الساعة، فمضيت أنزل وأصعد الدرجات المهجورة بلا مضايقات . كنت أذرع الدرجات بخطوات وئيدة ، وبين الفينة والفينة أقف وأصيخ السمع . دائما أصيخ السمع . أذناى هما طريقى . أذناى هما

عزائى . هما حبل النجاة الذى أتشبث به . كنت أقف وأرهف
السمع فى هدوء ، متمالكا نفسى ، لكننى ما ان سمعت وقع
خطواته المعهودة تطأ العتبة تحت ، حتى انتابتنى رجفة ، وأحسست
ساقى يرتعشان وبعد هنيهة لمحته يصعد السلم ، ويدنو منى ،
مثبتا نظراته الى الأمام بلا اكتراث بمن حوله . وكنت الى يمينه
ويساره وورائه ، ومن فوقه وتحته ، وأمامه . ولكنه كان معرضا
على الدوام بوجهه الذى خلا من كل تعبير ، وروحه الشقية .
كان قد شرب من روحى أنا ، ورشفنى حتى الثمالة . سريت فى
دمه ، وفى لحمه ، وفى عظامه ، وأصبحنا نصعد الدرجات ، وننزل
معا . صحت فيه بصوت لا صوت له .. ولكنه لم يكن على
استعداد أن يلتفت الى أى نداء . ربما لو سمعنى ، لو تجسم
ذلك الصوت ودبت فيه الحياة ، لألقى فى وجهى شتائم ولعنات ..
ولهذا تراجعت ، ومر هو من جانبى ، دون أن يعيرنى نظرة .
وحتى تحية المساء التى كنت قد دبرت أن ألقيها عليه اختفت فى
حلقى . كما ماتت على شفتى كل الاستفسارات والتوسلات التى
أعددتها لهذه المناسبة . فى أعماقى مقبرة كلمات وآمال وعواطف .
كلها ، كلها ، أوراق ذابلة تدفعها ريح خريفية الى أرض غرفتى ،
فاذا سرت عليها سمعت قرقعة عظام فقيد عزيز ، فرض على كطقوس
يوجبها كتاب وثنى عتيد أن أدوس عليها كل يوم ، بل كل لحظة
بالليل وبالنهار ، وتصعد أناتها الى رأسى المسندة الى الحائط فى

وهن وأعياء • كل التركيز الذى قدرت عليه تبدد • وها أنا ألصق أذنى بالحائط الأبدى ، علنى أجد الصوت الذى بقى لى ، الصوت الذى يمدنى بالحياة • سأعاود الاصغاء ، فربما كانت النذر كاذبة، أو ربما لم أفهمها جيدا ، أو لعله لم يبق لى الا الاصغاء • بأناة وحذر ، سألم أشتاتى وأخوض معركتى من جديد • كنت فى صباى أصلى • أصلى حتى من أجل قطتى ، الى ان ماتت قطتى • ماتت • ماتت ، وألقت بها أمى فى صفيحة القمامة • جاء عامل النظافة ، وأخذها معه اليوم التالى • الى أين ؟ اننى أشم نتانتها من بعيد ، ونتانة جدتى ، وأبى ، وأمى أيضا • كانت أسعد أوقاتى عندما أصبت بالزكام • هس ، صمتا • جارى يعطس •• ثم يصدر من أنفه خريرا • اسكت ، أيها اللعين اسكت ! وددت ان أعدم فلا أسمعك • بعد هلاكى لن يكون لك وجود • وجودك مرهون باذنى • لو قطعتها ، لو قطعت كلى مثل شجرة نخرة ، لما أصبح لك وجود ، لكننى مشغوف بك • أريدك أن تبقى ، ولهذا أبقى أذنى لصق الحائط الرطب • يا للجحيم ، شىء لم أكن أتوقعه ! صوت نسائى ! يقول له « سلامتك ، يا حبيبى • خذ قرصا ، واجرع قليلا من الماء » الصوت ليس غريبا ! يتسلل الى أذنى ، يذكرنى بالوسادة التى كان يزحف عليها كل ليلة ويقول « اطفىء النور ، ياحبيبى » ثم عبر الحائط تفد رشفات ، ورنين كوب ، وحفيف خف • أعرفه ، هذا الخف ، جيدا •• كأنه يسير

على جسمى . يدوس على صدرى ، وبطنى ، وفخذى ! وأنا من لى بقرصى المسكن !! من ! ؟ صوت لا صوت له . عطشان عطشان . لكن ما الجدوى من كل هذا الالتياع ؟ ما من أحد يسمعك . رأيت ذلك من قبل ، على السلم ، وانتما تصعدان . صوتك مثل خطوات قط فى الظلام . اهدأ اهدأ ، فلم يعد فى العلبة مسكنات ، وعليك أن تتحمل الألم . فهذا أفضل مسكن للالام ، قوة الاحتمال ! سأحاول من جديد فى أقرب فرصة . وربما لا أكون مخطئا لو أقول انه فى مثل هذه الظروف يحتاج المرء الى كثير من الروية . ها أنا أحفر بأظافرى على الحائط الكلمة الكبيرة « الصبر » انه كنز لا يفنى ، ولكننى كلما مضيت أتابع حياته من وراء الجدار تيقنت ان من العبث ألا نعجل بهدم ذلك الحائط ، والانسارع بالالتقاء . كنت قد خطوت الخطوة الأولى فى هذا الطريق ، بغض النظر عن أننى لم أصل الى نتيجة مرضية ، فهو لم يلق الى نظرة ، لماذا ؟ ألم يتبين بعد أننا من طينة واحدة ، اننا توأمان ، اننا وجهان لعملة واحدة ، ان مصيبتنا واحدة ؟ ربما كانت تركيبته النفسية أكثر تعقيدا منى ، ربما لا زال يحيا المأساة ــ مأساته ــ ما الذى أعرفه ــ مهما أدعيت ــ عن حياته ؟ عندما نبعث من جديد سنعرف اننا لم نعش يوما، ولا حتى لحظة . هكذا نولد ، يشق قبر ونخرج منه . وانتهى الأمر .

وفجأة ، ذات ليلة ، سمعت خطواته ــ على غير عادته فى

تلك الساعة ـــ تتجه الى الباب الخارجى • انبهرت أنفاسى • أسقط فى يدى • لم يكن بابه يفتح بعد العودة • ان يخرج مرتين فى اليوم الواحد ، كان هذا فظيعا ، وأنا ـــ موثق القيد الى هذه الجدران ـــ لا باب عندى للخروج ، ولا نافذة ، ولا حتى كوة ! • ولكن اذا فتحت فى الجدار مثل هذه الكوة • ألن يجلب لى ذلك شقاء اضافيا ؟ بهذا كنت أحادث نفسى ، فالمرء بحاجة الى مسكن على الدوام ، وفى عقله يجد أكبر علبة من المسكنات ، فهذا العقل الحكيم الجبان لا يقوى على غير التماسك واذا لم يستعن بالمسكنات تناثرت أشلاؤه وأصبح منظرها ملتصقة بالجدران والسقف لا يطاق • فتح الباب فى الغرفة الملاصقة اذن • ثم أغلق وأدير المفتاح فى القفل الصدىء • خرجا • وأنا ؟! مضيت أجرى متخبطا بين جنبات حجرتى • أتعثر ، وأنكفىء ، ثم أنهض ، لأتخبط وأسقط من جديد • ولكن على الدوام ، فحيح الأفعى يواسينى مخادعا « أفتح الألبوم ! » سمع لتقليب الصفحات صرير عتيق • الخطوات تمضى مبتعدة ، صاعدة درجات السلم ، خطوة • خطوة • صوت مرتعش يهمس «خائفة» الصوت الآخر يجيب «ليست هذه أول مرة » هناك ، اذن ، غرفة على السطح أيضا • ركزت قريحتى • أذكرها ، غرفتى على السطح فى حلوان • الأريكة بجوار الحائط • الجسد الممدود ، العينان الواسعتان مثل كهفين والشعر الأسود والشفتان الظامئتان ، والقبل الحارقة ، والبئر ،

والكلب يعوى عند أول الشارع ، وضوء القمر .. والأكذوبة ، والسم الزعاف ، والنداء المجهول ، والعطور ، والرغبة المجنونة تذيب العقول، ومن جديد يعود كالمسحور. يدفع الباب الصدىء، ويصعد الدرجات فى خطوات ثقيلة ، ويرتمى بين الذراعين ، على النهدين . وتعصر ذراعاه المرتعشتان القامة النحيلة . وتمس أنامله نحرها وصدرها وكتفيها وشعرها ، فى استجداءة ذليلة . الحركة الصاعدة الهابطة ، الأنفاس الثقيلة المسحوبة من أعماق بئر . على البساط المزركش بالرسوم الوحشية الغامضة الأقدام حافية تدب خطواتها لينة من فوقى . عيناى جاحظتان . تسمرتا على السقف، وعلى النجوم والفراشات والأفاعى . الماء يجـرى من الصنبور المفتوح فى الطابق الأرضى ، والخرير يتعـالى كدخان من نار باردة . الشهوة فى العروق تغلى ، ثم تخبو دون أن تنطفىء . ها هو اللعين يعطس من جديد . هكذا تجرى الأمور اذن من وراء ظهرى ،من وراء الحائط ! اعتقدت انك بوجهك الحزين تحمل روحا مثقلة بهموم الدنيا كلها مثلى ، عطفت عليك أفسحت لك مقاما فى حياتى . بالأحضان كنت أستقبلك . ثم ها أنت ذا . فوق ، فوقى ، تدوسنى بنعليك ، لا تعنيك قرقعة عظامى . صوت الملة يهشم ضلوعى . فتح عينيه ، ثم عاد فأغلقهما بسرعة . صدمه نور المصباح المدلى من السقف . كانت هى منكبة عليه تحاول بأناملها أن تمحو التجـاعيد المحفورة على جبينى . نزلت من

السرير ، حافية القدمين . ذهبت الى الشرفة ، وفتحت الضلفتين الخشبيتين قليلا . ثم أقفلت الزجاج . قلت لها « ضعى شيئا على جسدك » انتابنى خوف وأنا أراها تخطو عارية أمامى مثل أنثى حيوان ضار تجوس الغابة على سجيتها . أطفأت النور . وجاءت ترقد الى جوارى. كانت الأضواء فى الغرفة تفد الآن من الخارج خلال شقوق الضلفتين الخشبيتين . اضــاءة صحراوية صفراء ناصعة . ما عاد مخزن المسكنات يفيد . اختلاسات ، اختلاسات، من كل نوع . من كل جانب . نصبتك أمينا على القليل . وها أنت تستحل لنفسك مالا حق لك فيه . وأنا آخر من يعلم . لم ترع حرمة لعنتى ، ولم تأخذك بى رأفة . اذن ، خذ ، خذ هذه . فاذا كانت حياتى كلها جدباء فلا زالت ذراعى لا تعانى مما عانته بقية الأطراف . امتلأت الغرفتان بالصياح . ارتجت الجدران ، تساقط البلاط . صرخات تدوى : صرخات تمزق السكون . الريح تصفع الشباك الخشبى المفتوح . تخبطه فى الحائط . يرتد اليها ، فتعود تصفعه . وأنا أضرب الأرض بجسدك النجس . اضرب . اضرب، أهشم رأسك . صرخات وصرخات ، ثم يخمد كل صوت ، ويخيم الصمت البليد ، كأن شيئا لم يقع . كأن لا معنى لشىء . كأس يسقط ويتناثر حطامه على البلاط . أمواج يعلو هديرها وينخفض رتيبا مهيبا ، مثل ظلام الليل ، مثل كل الظلمات . على أسفلت الطريق وقع سنابك جياد تجر عربة سوداء تبتعد ، ويبتعد معها

الصهيل • عاد الهدوء • سكنت الريح • غسلت الأمطار أحجار الطريق ، فبدت في اليوم التالى تلمع تحت شمس نوفمبر • الحانية • أين تذهب الآهات ؟ أين تذهب الصرخات ؟ أين تذهب الزفرات ؟ بحر الصمت يبتلع كل شيء • شيطان الصمت يخنق كل شيء •

مسكين أنت ، أيها الانسان • لا يملأ عينيك الا التراب • سمعت ذلك القول كثيرا • مساكين انتم ، يا من في الغرف المجاورة • شرسون انتم ، ضعاف ، خطواتكم بالخارج تمضى مبتعدة ، حتى يبتلعها صمت غرفتى ، ولا يبقى من صخبكم الا لهثات • لكن أين تمضى الخطوات فى تلك الساعة ؟ منذ نزلت بهذه الغرفة ، كانت هذه أول مرة يخرج فيها جارى بعد العشاء • لا مفر • لا بد أن أعرف • الفضول آفة لا توبة منها • أين تذهب الخطوات فى تلك الساعة المتأخرة ؟ ركزت ذهنى من جديد • خلعت البيجامة ، وعلى عجل ، ارتديت سروالى ، وانتعلت حذائى ، ثم ألقيت سترتى على كتفى • وخرجت أنزل درجات السلم قفزا • وعند الباب الخارجى رأيت البواب ينظر الى بدهشة • قلبت صفحات الألبوم • جابر ، جابر • كان هذا اسمه • سألته « من أين ذهب ؟ » تفحصنى من رأسى الى قدمى، وندت منه صيحة « من ؟ أنت ؟ » سكت كمن يدرأ عن نفسه خطرا داهما • زدت اصرارا على سؤالى « أجل ، هو • أين

ذهبا ؟ ارتعد صوته « كيف ؟ كيف حدث هذا ؟ » هـددته . انكمش ، وقال « في مرآة معكوسة » فهمت . مضيت أجرى . كانت مصابيح الشارع تلقى ظلى على الأرض أمامى . كان يجرى بدوره معى . دخلت زقاقا . كان معتما . تعثرت . وجدت أمامى حائطا عاليا ، يسد على السبيل .. طرقات . كلت يداى . أجبنى ، أجبنى ، ياظلى . اسمعنى . أنسى دائما ان صوتى لا صوت له . بعض الأحيـان ، تمنيت أن يكون قد عرفها قبلى حتى أكون أنا منافسه منتزعها منه ، أن أكون أنا غريمه . لا أن يكون هو غريمى .

وقفت عند كشك واشتريت علبة سجائر . أشعلت سيجارة ، نفثت دخانها فى وجه الليل . ها هى الغرفة . ها هى النافذة مغلقة . ظلام بالداخل ، وفى الخارج ظلام أيضا .. هل جاءا ؟ هل سيجيئان ؟ انزويت فى مكانى . من هنا أستطيع أن أتابع دون أن يرانى أحد . أضواء شاحبة ، هناك . أنا فى الظلام الآن ، دائما كنت فى الظلام ، قطعة من الظلام أنا . بعد قليل ، توقفت سيارة تاكسى . نزلت ترتدى التايور الأزرق ، وفى يدها حقيبتها السوداء اللامعة ، هداياى القديمة . كل شىء أصبح قديما ، باليا ، ضاربا فى القـدم ، متهرئا ، حتى الأكفان والتوابيت نبشت ، واغتصبت ، وسرق منها ما سرق . من هو الآخر ؟ ها هو . أتبينه جيدا ، وهو ينزل من التاكسى ، موليا اياى ظهره . انه هو ! أجل ،

هو بلحمه ودمه • وبين شفتيه الغليظتين تتدلى سيجارته ، وفى عروة سترته شبك زهرة • تجيل هى النظر حولها • لا بد أنها تخشى النظرات الخادشة ، ولكن نظراتى أنا ، هل تخشاها ؟ كلا ، انها مطمئنة ،فلست بالمدينة • غادرتها فى سفر يستغرق أياما •

« لن يكون هنا الا يوم الخميس • لا خشية من نظراته » • هكذا تقول لنفسها • ابتعد التاكسى الآن • وضع الآخر المفتاح فى الباب • دفعه • ودخلا • الباب أقفل • صــدت عيناى • ركبتاى ترتعشان • اتكأت على مقبض الباب خلفى • برودة الحديد تسرى فى أصابعى وراحتى ونخاعى • أبواب • أبواب كثيرة تصطفق • مفاتيح تدور فى الأقفال • صرير أبواب قديمة • رتاج يحكم • سلاسل تصلصل • ثم أبواب حارسة شامخة • أسوار حول مدن حصينة من مدن القراصنة تصد عنها غارات • مداخل كهوف سوداء • كهوف داخل كهوف • سراديب ثعبانية • أبواب حامية متينة القضبان • فى صدره باب يقفل أيضا • ستائر من الصلب تسدل • ويحكم تثبيتها • أغلق قلبى أبوابه • خرجت منه • تركت الباب مواربا لكنه اصطفق • نفخت فيه ريح فانغلق ، دون أن يدرك • قلبه وحده أدرك أن الباب انغلق • دخل مقهى • شرب كأسا وأشعل سيجارة • تجلد •ثبت قلبه بين ضلوعه • طلب كأسا آخر • جرعه دفعة واحدة • اشتعلت وجنتاه • هى الآن بين ذراعيه • كأس آخر • حتى الثمالة • رأسه تدور • وتدور معها

هي على الفراش بين ذراعيه • عارية • الأصابع تتحسس جسدها• تسرى الرعشة فى أحشائه ، كلا ، انه لا ينسى بالشراب • بل تزداد الذكريات تأججا • وينفتح الجرح • هى • وجهها ، فحيحها• «سامحنى• سامحنى• لم أستطع أن أقاوم• حتى النهاية لم أقاوم•» الحقد الهائل يجتاحه • يصعد من قدميه الى رأسه ، ويحرقه • لو كان الذى أخذها منه رجل آخر لما تعذب الى هذا الحد ، لما اضمر له ما يضمره الآن من كراهية •

نهض • ومضت فى عقله الفكرة الجهنمية ، وسريعا ما استقر عزمه • على شفتيه ابتسامة ملتوية، لكنها بعثت الى قلبه الرضا •• سوف ترى الآن • سوف ترى ماذا ينتظرك• خطواته تقترب • انه يسمعها على أسفلت الرصيف • سريعة ، ثقيلة ، مهرولة • كان عليه أن يلج ذلك الباب اذن • وكم سيكون الظلام عندما ينفتح الباب المطل على حمأة الليل !

هرب منى • أحسست بالعزلة تمزق فؤادى سأفقد حليفى الوحيد ، اذن • وسأعود الى وحدتى القديمة • كلا • ليس ذلك ممكنا • ليس حليفى قادرا أن يفلت من قدره ، مثلى تماما • الحائط الذى يفصل بيننا انما يحوط بنا أيضا • وانى لنا ان نكسره ؟ كيف ندور حوله ، ونخرج من أساره ؟ انه هو الذى يدور حولنا • يلفنا ، يلفنا ، مثل أسطوانة ، مثل ماسورة فى ماكينة تكرير • أشعر بالدوار • الى بشراب ، جرعه من شراب ،

شراب ! الهث . انها النهاية ، لكننى أعرف الا نهاية . فحيح الأفعى « تماسك » أجل يجب أن أتماسك ، وهل أترك رفيقى فى الغرفة المجاورة لعزلته ؟ هو بحاجة الى ، كذا اننى بحاجة اليه، كلانا يكمل الآخر . كلانا امتداد ، نحن لحظتان متتابعتان فى زمن واحد .. حلقتان فى سوار حول معصم واحد . يخيل الى أحيانا اننا نحن اللذان نحوط بالجدار ، وليس هو الذى يضيق علينا الخناق .

دائما أعود الى غرفتى . الانسان بحاجة دائما الى مكان . انه ليس محاصرا بالزمان فحسب ، بل هو أسير المكان أيضا . لكننى عزمت الآن . سوف أتخذ قرارا حاسما . غدا ، ما ان يعود للعشاء سأدبر لقاء معه، فى غرفته . لا تهمنى العواقب . سأقابله.. لن تثبط من همتى أساريره المتهجمة ، ولا مسحة الحزن المرتسمة على قسماته . سأطلب منه أن نتعارف وأن نصبح صديقين .

ماذا حدث ؟! ما الذى عاقنى عن أن أنفذ ما عزمت عليه ؟ ما الذى منعنى من أن أدق بابه ؟ أهو صوتى الذى لا صوت له ؟ أهو خجلى من عدم وجودى ؟ كلا .. ليس هذا ولا ذاك . ما منعنى انما هو انه لم يعد الى غرفته ، هو ما زال غائبا ، وأى عذاب عذاب الانتظار ، عذاب العطش الى الآخر ! قبعت عند الحائط ، ومضيت كعادتى ، انتظر . انتظر صحبته الخفية ، مثل كلب ينتظر عودة سيده . لا صوت فى الغرفة المجاورة ،

ولا صدى ، ينم عن عودته . سدت نفسي عن كل شيء ، كما كان حالي قبل أن ألتقي في هذا الوجود بخطواته . رقدت ، ومضيت أنتظر متوتر الحواس متحفزا . الصنبور لا زال مفتوحا ، والماء يتساقط قطرة قطرة . ليس من السهل أن تلتقط أذناك هذه القطرات المتساقطة . يجب أن ترهف السمع لتسمع . قلت لنفسي ربما تراكم الماء وأصبح طوفانا، وأغرق هذه الغرف ، كلها ، كلها. أن تتوقع حدوث الكوارث ، أن تتوقع الخراب ودنو الآخرة ، عزاء . لكن في هذا المستنقع الراكد من الصمت العزاء أمر مستحيل ، فأنت قد تركت هنا لنفسك تنهشك ببطء لتعود فتنهشها أنت وذلك ما لا نهاية . هذه الازدواجية هي الاسار الأبدى . السجائر ما عادت تجدي في قتل الوقت . مضيت أغني لنفسي ، فان سماع الانسان لصوته ، واحساسه بانه موجود ، مفيد في مثل هذه الحالات . انه يبعث قليلا من الدفء والثقة بالنفس ، ولكن ما تلبث الأرض المجدبة الظمأى أن تمتص القطرة الأخيرة ويعود الجفاف . أحس بحلقي قمينة من الجير . مضيت أنتظر ، وكلما ندت من السلم أدنى جلبة أقول لنفسي لا بد أنه هو ، لا بد انه رجع ، لكن الجلبة كانت على الدوام سرابا ، فهي تارة جرذ ينفلت نازلا السلم ، وتارة هي الريح تعبث بالأبواب غير المحكمة الايصاد ، وتارة هو قط يغازل أنثاه أو يتشاجر مع غريم . أما الخطوات المرتقبة فكانت لا تجيء . رحت أتصفح الألبوم ، قتلا للوقت وبحثا عن عزاء .

« أهدأ يا حبيبى • نم هنا » « على صدرك ؟ » « الذى طالما اشتهيته » « ناعم • دافىء • طرى ، مثل وسادة من ريش النعام • سأنام • سأنام الى الأبد • الى الأبد • سأنام » ارتجت العربة • استيقظ • توقفت السيارة فجأة • نهض منتفضا « أين نحن ؟ » « عند نقطة الهرم » « البوليس ! » انفتح باب السيارة • ظهر فى العتمة ضابط يرتدى معطفا أسود ثقيلا • ومن ورائه عسكريان • وفد صوت الضابط مهذبا وحازما « سوف نزعجكما• لكن الأمر عاجل • يجب أن نرسله معكما • هذا الجسد لا يجب أن يبقى هنا • ترون المطر الذى يتحول عند السفوح الى سيل منهمر • « الجسد ؟! أى جسد ؟! » « معذرة ، أقصد الجثة • ستحملانها معكما » شهقت جزعة « اعتبـارات الأمن تقتضى ، يا سيدتى ، أن أطلب منكما ذلك • » ثبت الضابط أنظاره على الجسد الآخر ، وأضاف مبتسما « واعتبارات انســانية أيضا • أعرف ان الأمر مزعج لكما • لكن فى هذا الوقت ليس هناك وسيلة أخرى • لا تخافا • الموتى لا يقتلون • سيصحبكما واحد من رجالى • سيسلمه الى المشرحة • لا تخافا » • كانت السيارة تجرى بسرعة • جلسا ملتصقين متعانقين بشدة • رفعا بخوف مهول سيقانهما الى ظهر المقعد الأمامى ، حتى لا يلمســا الجثة المسجاة على الأرض ، تحتهما ، ملفوفة فى عباءة قاتمة ، هواء بارد يلفح وجهيهما • ازدادا التصاقا طلبا للدفء • كانا يرتعدان •

جلس الشرطى الى جوار السائق يدخن ، ويتكلم بصوت جهورى • لف سيجارة • وأشار الى الجثة بسيجارته « وجدناها ملقاة على بعد خطوات من طريق السيارات بجوار الهرم الثالث • » نفث الدخان ، وقال ، وهو ينظر الى المرأة فى مرآة السيارة « أتعرفين ماذا قال زوجك عندما لف هريدى الحبل حول عنقه ، وشده الى الخلف ؟ » قالت المرأة من بين أسنانها « أنا لا أعرف شيئا » قال الشرطى بهدوء « صرخ متوسلا أن يتركوه من أجل أولاده الثلاثة » نقل الشرطى نظراته فى المرآة نحو الرجل الملتصق بها « حضر المتهم الى مسكنك ، وقضى معك السهرة ليلة مقتله • أليس كذلك ؟ » استدار اليها وقال « لا • لا تخفى وجهك الآن • كل شىء انكشف • » نكست المرأة وجهها ، فانهمرت جدائلها وقالت « كنت أبحث عن وجودى كامرأة • واذا بى بين رجلين ينظران الى نظرة اعجاب • تقت أن أحيا الحياة التى تجعلنى أروق فى عينى كل منهما • »

كل شىء بدأ فى تلك الليلة مثل الأحـــلام • كانت الريح تعصف وتلقى بالأشجار محنية الى الارض • وفى أديم السـماء تولى السحب متشكلة بأشكال وحوش اسطورية ودوامات هاربة •• استدار للمرة الأخيرة نحو الشباك الخلفى • بدت له الدنيـا من كوة ذات قضبان • الى جواره كانت نيللى • معطف بفـراء أبيض • لا يذكر متى ركبت السيارة ، ولا كيف وجـــدها الى

جواره . ذكرى قديمة . المال يجذب ويقرب . سمعها تقول « خذنى معك » والتصقت به . صوتها ناعم مثل فرائها ، متسلل مثل نظراتها ، مسكر مثل شفتيها . أين راح كل ذلك ؟ مضت ساعة صمت طويلة . الأشجار الباسقة فى الخارج تصفعها الريح، فتميل على بعضها ، كأنها تعدو وراء بعضها ، محنية الهامات، تكاد تقبل أغصانها الأرض ، متوسلة أن يخلى سبيلها . وبين الحين والحين تلفحها ومضة ضوء فتبدو مثل أشباح تحرك سواعدها ، تحاول الامساك بشىء فالت . قطرات المطر تنسال على زجاج النوافذ فتزيد الرؤية اعتاما وغموضا . الجسد على أرض السيارة كان ينتفض من وقت لآخر ، مثل خشبة متصلبة ترتج كلما ارتجت العربة فى اندفاعها السريع . مضى الشرطى يبصق ويلعن الحفر والمطبات ، وينظر اليهما نظرات تتسلل الى أعماقهما فتزداد اصابعهما تقلصا وتشبثا بأصابع الآخر . كل شىء بدأ مثل حكاية قديمة فى هذه الليلة التى غسلها المطر .

« تعال معى » « ما عدت حرا » أومأ الى الجثة .. « أردت أن أتخلص منه فازدت التصاقا به » ارتجت العربة فألقت بالجسد نحوهما . قال الآخر « أين تذهب ؟ أنت لى ؟ » قلت « ابتعد » ركل الجثة . قال لى « الست صديقك ؟ » ركلها من جديد . « لم نكن نفترق » قلت له « لا اريد أن أراك » قال « ومع ذلك ، نحن شخص واحد » قلت « لا اعرفك » قال

« أنت الذى قتلت • لست أنا • كم اشفق عليك ! » تشبثت نيللى بَرقبته وقالت « دعك من الهلوسات يا حبيبى » « وددت أن أوهم نفسى بأن لا شىء حدث » « انتهى العناء • كل شىء بين يديك الآن، فالنرحل » « أريد ان ألحق به » « العـــالم رهن اشارتك • دعنى أقبلك » • « تنخدعين فى •• لست أنا من تظنين •• لست الرجل الثرى القوى الذى يرضى اطماعك • لست ذلك السعيد الذى ظننت اننى كنت • أريد أن أبكى » التمعت فى الأعماق ومضة مسحت سواد الليل لحظـــة • « أنا زوج قتلنى عشيق » «أوهام من صنع خيالك» « ألا تخافين منى ؟ ألا تخشين ان تعانقى جثة ؟ أنا قتلت • ها هى جثتى تلمس قدميك • أنـــا جسد آخر » « ابعد عنه ! لا تضعف ! » « يجب أيضا ان ترى وجهه» «لا تزح عنه العباءة !» «سأكشف وجهى ، وجهى الحقيقى كى تريه ، يا سيدتى الناعمة •» « لا ! لا تفعل ! » « تأمليه • وليرتسم فى مخيلتك لتقولى عنه لمن سيكون ليلة غد فى حضنك• ستقولين كانت عيناه تلمعان مثل كرتين صغيرتين من زجاج • كما لو كانا يسألانك لماذا ؟ لماذا فرض عليه أن يموت ؟ ومن أجلك ؟ انظرى ؟ جلده أصفر ، وفمه فاغر ، كأنه يريد أن يحكى عن قاتل رأى جثته مسجاة عند اقدامه • كلا ، لا تغمضى عينيك • من الطريف أن تحكى عنها لعشيقك • » « يا لها من ليلة فى صحبة مجنون ، وجثة محملقة العينين ! » كانت السيارة تجرى مسرعة •

تجرى منحدرة على الأرض الزلقة اللامعة • وعند الهرم الثالث القيا بالجثة • كان البرد يغنى أغنية العشق المجنون والموت ، وتصبها فى آذان الشجر مرتعش الجذوع ، والأغصان تتساقط أوراقها الذابلة دموعا ، الليلة ، ليل العالم ، الليل الغريب ينزف ويتدفق • ومن بعيد سمع نواح انسان من أعماق بئر •

أياما تلو أيام جلست ارقب الحائط الصامت • ماذا جرى؟ أين قادته تلك الزيارة الليلية ؟ تقلبت على جنبى ، وما لبث أن عاودنى الأمل • كلما وصلت الى سمعى خطوة من الخارج ارهفت أذنى ، لكن عبثا • تلك الخطوات الثقيلة البطيئة لم تعد تسمع • بقيت فى موضعى وقتا طويلا •

انقضت على فى هذا الحال ليال وليال دون أن التقط من وراء الحائط أدنى خطوة ، ادنى بادرة حياة • انتابنى قلق حقيقى• هل ألمت به حادثة ، هناك ، بالخارج •• حيث يتصادم الناس ، ويغرسون أنيابهم فى أعناق بعضهم بعضا ؟ ولكن ألم تكن الجرائد لتنشر الخبر ؟ ألم يكن يسمع نواح الورثة وصخبهم عندما يأتون الى غرفته يقتسمون ثيابه وامتعته ، مهما كانت قليلة ؟ اذن ، أين هو ؟ أين راح ؟ مضيت استعرض كل ما يمكن ان يكون قد حدث له ، كل الاحتمالات ، دون أن أصل الى تصور مقنع •• فى أعماقى ما زال هاتف يقول « سيجىء ، سيجىء ، وهل يمكن الا يعود ؟ هنا البداية ، وهنا النهاية أيضا •• ان كان ثمة نهاية»

كنت أقفز من رقدتى احيانا ، وأكتم انفاسى ، والصق صدغى بشدة الى الحائط ، وقد تهيأت ان أتصيد أية همسة .. أو حفيف فى الغرفة ، لكننى لم أكن اسمع الا دقات قلبى .

لا أعرف كم من الوقت استمرت حالة الغياب هذه ، ولكن الانتظار بدا ثقيلا رهيبا . فى قبضة الزمن الوئيد أحسست بخيبة أمل مريرة . ولكن فيمـا كنت آمل ؟ لماذا أصر على السـهر والترقب ؟ هل كان من المعقول أن يعود ؟ لا شيء يعود سـوى الذكريات . الأشجان القديمة وحدها تعود لتعذب ، وما عادت عيناى تشيحان عن صور الألبـوم .

ذات ليلة ، وكنت أحاسب نفسى أشد الحساب ، سمعت وراء الحائط الخطوات الثقيلة البطيئة من جديد . هببت من رقادى . طردت عنى الخمول . وزايلنى الاعياء . أصبحت كلى أعصابا متحفزة . هممت أن أصيح فرحا . هاهو يعود أخيرا ، ها هى الأصوات تصحو فى الغرفة المجاورة . عاد الرجاء . عادت الحياة. لم يكن الانتظار هباء . كان اللاشيء شيئا ، اذن . ها هو باب الدولاب يئن انينه المعهود ، عندما تفتحه اليد المجاورة . ها هو الكرسى يجر على الأرض ، ويصطدم فى رفق بحافة المنضـدة الخشبية ، شيء معدنى سقط على الأرض ، جسمه على السرير مهدود ، أنفاس متعبة . الأصوات القديمة الحبيبة عادت . التصقت

بالحائط . غمرتنى سعادة دفأت أوصالى . وتدفقت الدماء فى عروقى . تبدد احساسى بالضياع والعزلة .

ظللت طويلا هكذا ، أرشف شعورا بطمأنينة ما . تشبثت بالخطوات وراء الجدار . وفى نشوة قبعت انتظر راضيا . مضيت بدورى أحدث جلبة حتى ألفت انتباه رفيقى الى وجودى . على أن دعوتى لم تلق استجابة فحسب بل ان الأصوات جلجلت بعد قليل فى أرجاء الغرفة الملاصقة ، تجوبها الخطوات من طرفها القصى الى طرفها القصى الآخر . شىء غريب ! ماذا حدث لتلك الخطوات الثقيلة الرزينة ، تعلو ثم تهبط .. وتتوقف ، تموت، ثم تعود فتعلو متخبطة من جديد ؟! ظلت أذنى تمسح الحائط من طرف الى طرف .. وقد تعلقت به أنظارى وجلة . لماذا يتخبط بعصبية ؟ أهو ينوى الخروج من جديد ؟ توقفت خطواته فجأة ، خلف منتصف الحائط . جذب المقعد . هببت . نفضت عنى الأقمطة واللفافات . مددت رقبتى ، حتى التصق صدغى بالجدار تماما . ولكنى بدلا من أن أسمع الأصوات المعتادة دوت فى أذنى طلقة مسدس عكرت السكون المخيم . انكببت بذراعى مفتوحين على الحائط ، كما لو كان ذلك لأذود عن جارى وأحميه أو ربما لأحتمى أنا من شر يراد بى . لكن سرعان ما أدركت كل شىء ، وسقطت على الأرض .

ها هى الخطوات تفد من السلم ، خطوات كثيرة مسرعة ،

هناك من يقترب من غرفتى • يطرقون الباب بشدة ، ثم يعاودون الطرق • تزداد الطرقات بقبضات الأيدى وبالراحات وبالأقـدام فى النهاية • انكمشت • ها هم قادمون • تصبب العرق على جبينى • سيقبضون على ـ لا • لا ، لم أقتله • صدقونى • انظروا يدى ، نظيفتين لا دماء عليهما خبأتهما وراء الظهر • لا • لا ، صدقونى • لماذا تصوبون نظراتكم الى، هكذا ؟ لست أنا • لست أنا • صدقونى ، اذا كان بامكانكم أن تصدقوا •• تزايد العرق •• جريت الى ألبوم الصور أفتحه • عينان ملقاتان على أرض الغرفة • جاحظتان •• مسـمرتان •• تحدقان • أى يوم منحوس هذا ! لم أقصد أن أقتله • ما بيننا كان • • قاطعنى البواب قائلا « هدىء من روعك • اطمئننا الآن انه ليس انت اذن ، هو الذى قتل •• » راح يجر الجموع وراءه بذات خطواتهم العجول المتخبطة • تسللت معهم ، قناعا بين اقنعة • مضى البواب يدق بقبضته باب جارى • ولما لم يتلق اجابة ، هجم على الباب محاولا أن يكسره عنوة ، بكل ثقل جسمه • كان الباب مصنوعا من مواد لا تتصف بالمتانة ، فقـد كانت ترجع الى عصـور الاضمحلال التى جاءت فى أعقاب تلك الأيام الذهبية • تزايد الصخب ، فقد أخذ الباب يستسلم لهجمات الجموع التى انضم اليها آخرون فى هذه الأثناء • جيران آخـرون تزاحموا على الدرجات حول البواب ، رجال خلعوا ستراتهم ، ونساء شعث

الشعور بقمصان النوم ، وبالقباقيب فى أقدامهن • توالت التعليقات والاستفسارات الفضولية « ماذا جرى ؟ » « من الذى أطلق النار ؟ » « الا ترون أى باب يقرعون ؟ » « مكتوب » « قضاء أهون من قضاء » « المكتوب على الجبين •• » « كنت أعرف ان هذا سيحدث له ، انه من الصنف الذى تصدر منه مثل هذه الأمور » « كلنا لها » « لم يكن يقرىء السلام أحدا » جبينى يلتهب • القيت من حولى نظرة خائفة • سمعت صوت الطبيب الشاب يساعد البواب • الجميع لا أعرفهم ، لا أكاد أعرفهم ، أو ربما عرفتهم ذات مرة ونسيتهم • التقيت بهم كثيرا فى طريقى على السلم • جيران هم • ذات مرة أريد اخلاؤنا فتظلمنا معا ، ذو الصوت المبحوح ، والثرثار الذى يسعل كلما انتابه الخجل ، وذلك الذى يتجشأ ثم يتمخط ، وصاحب الصوت الحاد سريع الألفاظ • اناس التقيت بهم فى ماضى ولاشك • انزويت فى ركن مظلم • همساتهم تلاحقنى ، وتثقل من وزرى •

انهار الباب •• دخل الطبيب أولا • ثم أعقبه البواب ، ومن ورائه الرجال • بقيت النساء خارجا مترددات يرهبن الموقف • لم أستطع الحراك • تسمرت فى مكانى والبرودة تسرى فى ظهرى ، أنصت الى الدقات فى تجويف صدرى • ابتعدت خطوات البواب داخلة • تعالت همهمات النسوة عند الباب سائلات « الاصابة خطيرة ؟ » أجاب الطبيب من الداخل « تمزق داخلى » برز تساؤل

آخر « أين وجد ؟ » أجاب أحد الرجال « فى الحمام • على البلاط » سأل صوت رفيع « لكن لماذا كان الصنبور مفتوحا ؟ » وضع البواب حدا للاسئلة وقال « افسحوا الطريق • لنستدع البوليس » لم يجد الطبيب سوى جثة ، سالت دماؤها فى خطوط متشابكة الى الحائط • سأل « ألم يكن القتيل غائبا ؟ » أجاب البواب « جاء هذا المساء • سألنى ما اذا كان قد ترك له أحد خطابا باسمه • رددت بالنفى • نظر فى صندوق البريد غير مصدق ، وبدا عليه القلق • لابد أن للخطاب أهمية خاصة ، فقد عض شفتيه ألما عندما أيقن عدم وجوده • صعد الدرجات بخطوات ثقيلة ، كما لو كان فى حذائيه أطنان من الحديد • لم ينزل بعد ذلك • لزم حجرته الى الأبد • علق أحد الموجودين يقول « لكن الدماء تشير الى الحائط » ولولت النساء « يا لها من نهاية بشعة » خطوات البواب تنزل الدرجات على عجل • النسوة ينسحبن الى غرفهن ، ويغلقن الأبواب • البعض ظللن على العتبة يثرثرن ويعلقن على الحديث •• « حفظنا من شر المستخبى » « كل ذلك من جراء تلك الملعونة » « أما كان يكفيها رجلها ؟ » « ألف امرأة تتمناه زوجا لها » •

خرجت من ركنى • سرت الى الباب مرتعشا ، الى ذلك الباب المفتوح الذى طالما ترددت ان أقربه وهو مقفل • وكلص تسللت داخلا • انحرفت يسارا حيث تجمع الرجال يتناقشون

بصوت عال قرب الحائط وقد حوطوا بالجثة . اقتربت وجلا خلف تلك الظهور التى حجبت عنى القتيل . لكن ما لبث أحد المتجمعين أن لكز جاره طالبا منه أن يفسح لى الطريق . التفت الى الجميع وانتحوا جانبا توا . انحسر الحاجز ورأيت المجنى عليه فى مواجهة الحائط . فى صدغه الأيمن جرح غائر . تشوهت قسمات الوجه الملطخة بالدماء . رأس كروية مائلة . عينان رماديتان باهتتـان الى حد البياض ، تنظران الى السقف ولا تطرفان . فم كمـا لو كان قد خيط بخيط قرمزى . يدان مدلتان مبسوطتان مجوفتان .. ساقاه المدودتان بدتا طويلتين ، طويلتين ، كذراعى كماشة جهنمية . وقد كادتا تلمسان الحائط . كانتا تشيران اليه اشارة اتهام . الدماء سالت على عنقه وسترته . من حوله بركة من الدم . لوثت الأرض . هممت ان أتراجع ، لكننى عجزت .. ضاقت دائرة الجمع من حولى . جسمى ثقيل . قدماى لا تقويان على حملى . رفعت يدى الى عنقى . اصطبغت بلون أحمر قان . لم يكن الدم قد جف بعد .. سال دافئا ، لزجا ، مثيرا للرعب والقرف . رأسى الكروية ثقيلة مائلة . أحسست بالنظرات مسلطة على . خيم الصمت والترقب . كف الجميع عن الكلام . مضوا ينتظرون ان يروا ما سيكون رد الفعل على عندما أرى قاتلى . هذا ما دفعهم أن يفسحوا لى الطريق ، وأن يصمتوا وينصتوا . زاد توترى واضطرابى . انتابنى الدوار فجأة . أحسست اننى

فى بركة الدم سأقع . على أن خطوات سريعة فى تلك اللحظة بترت الصمت القاتل من حولى . كان الطبيب قد عاد بعد أن أبلغ البوليس . ابتسم لى . ثم أحاط كتفى بذراعيه وقال « وددت أن أتحدث اليك . انا جارك أيضا » أخذنى الى حجرته عنداسفل الممر . استقبلتنا امرأة نحيلة ، شاحبة ، لطخت بالكحل جفنيها وما حول مقلتيها .. حتى بدتا خاويتين مظلمتين . ابتسمت لى مشفقة . قالت « زال الشر الآن . لم يبق شىء » أول مرة ، منذ مصيبتى أتلقى رعاية من الآخرين . لكن كيف زال الشر ؟ كيف يمكن أن يزول الشر ؟ هذان الزوجان لا يعرفان معنى الوحدة اللانهائية فى غرفتى . عدت أنظر الى الطبيب . زاد الاضطراب فى عينى . نظرت اليه صامتا نظرة ضياع . كلا ، ليس بمتصور أن يزول الشر ، طالما ان الحياة ستمضى على ما كانت عليه ، والفعل المشئوم ذاته سيتكرر الى الأبد ، كطقوس محافظ عليها. قال الطبيب «لم آت بك الى هنا حتى أجنبك مرأى القتيل فحسب بل لأننى كنت أريد أن أتحدث اليك منذ زمن ، على انفراد . ألقيت عليك السلام من قبل . حاولت ان ابتسم لك أيضا عندما التقينا على السلم أكثر من مرة ، ولكنك كنت تتجاهلنى كنت غائبا عما حولك ؟ لم أدهش . قلت لنفسى لابد أن فى حياته مأساة ما ، مثل تلك التى كانت فى حياة المرحوم » راح يتفرسنى بتأن . يجب أن أحذر منه .. لم أكن مطمئنا اليه . ان الطيبة

تثير شكوكي . الى أن بدت الغاية من كل هذا الحديث المعسول، فقد سألنى مترددا « وددت أن أعـــرف فحسب ماذا كان فى المظروف الذى كنت بانتظاره » التفت الى زوجته . سقط القناع عن وجهها وأطل الخبث الكامن . انضمت الى زوجها « أجـل، الخطاب الذى سألت عنه البواب » عادت الكلمات المعسـولة على لسان الطبيب « نحن الآن معك . لن تكون مضطرا الى عزلتك . الكل يفتح لك ذراعيه ، هنا » لم أجب . لم يكن عندى ما أجيب به . كان على أن أعود الى منفاى . لم أكن بالخيار ، فقد كانت الاجابة المطلوبة منى شيئا مستحيلا . كانوا يريدون أن يعرفوا محتويات المظروف . أحسست فى كلماته رعشة تسرى فى بدنه كله . أعرف أن الألم يعشش فى قلوب الآخرين . أعرف أن الأحزان ليست لى فحسب ، ولا العذابات عذاباتى أنا وحدى، فالجدران كثيرة ومتقاطعة .. والغرف متلاصقة . ولكن ما فى الخطاب كلفنى كل شىء . احسست باشفاق هائل يجتاحنى ، لا على نفسى ، ولا على جارى القتيل فحسب ، بل وعلى جميـع من تحجبهم وتفرقهم الحوائط . انتهت المهزلة . لست أعـرف الآن مكانا أقصده سوى المشرحة .

نهض الطبيب بخفة . وقال لى بابتسامة غامضة « اذن ، أنت لا تريد أن تتخلى عن عنادك» . دخل البواب ، وقال راضيا «كل شىء عاد الى حاله . التفت نحوى غاضبا وصاح « أنت ، ماذا

تفعل هنا ؟ » سأل الطبيب « العربة ذات الجياد جاهزة ؟ » أومأ البواب بالايجاب وقال « والتصريح أيضا » ثم قادنى الى غرفتى من جديد • وقال لى ، كما كان يقول فى كل مرة « هذه المـرة، لاباب فى الجدار » •

الليلة الخامسة سمعت وقع خطوات هناك • اذن ، ثمـة انسان الى جوارى • حى !! اقتربت من الحائط قدر الامكان • الصقت صدغى عليـه ••

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤١٧٥

ISBN ٩٧٧ - ٢٠١ - ١٣٦ - ٠

٤٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب